

شهرية ثقافية إسلامية

السنة الحادية عشرة / رمضان/ ١٤٤٢هـ - نيسان/ ٢٠٢١م

تهدمت والله أركان الهدى

من أبرز المقالات:

- دور شهر رمضان في تربية النفس
- ابو طالب وجدل الهوية الاعتقادية
- ملحمة التوحيد في الأفعال ومسؤولية الاختيار



الهــــاتف: 009647435000242

موقع العتبة: www.imamhussain.org

موقع القسم: www.imamhussain-lib.org

بريد القسم: info@imamhussain-lib.org

الترقيم الدولي: 2518 - 5624

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (1211) لسنة 2009م

تصدر عن





هل نستطيع الغور في إشراقات
وعوالم التاريخ دون ذكر أمير المؤمنين علي عليه السلام؟

إنْ بحثنا عن البديل لهذه الشخصية فلا نجد من الخلق من هو مثله.

فهو الذي ناصر النبي صلى الله عليه وآله وسار بنهجه.

وهو المدافع عن النبي صلى الله عليه وآله والمحامي عن الرسالة المحمدية.

وهو محكم صرح الدين ومعزّ المؤمنين.

وهو الذي قال النبي صلى الله عليه وآله في حقه:

- خرج الإسلام كلّه إلى الشرك كله.
- يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي.
- يا علي لا يحبك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلا منافق.
- يا علي أنت قسيم الجنة والنار.
- يا علي أنت وصيّي وخليفتي على أمّتي في حياتي وبعد موتي.
- يا علي أنت أمير المؤمنين وإمام المسلمين.
- يا علي أبشر بالشهادة فإنّك المظلوم بعدي ومقتول.
- يا علي من أحبك فقط أحبني ومن أحبني فقد أحب الله.
- يا علي إن لك تضل ولم تزل.
- يا علي لولاك لم يعرف حزب الله بعدي.

فأمير المؤمنين عليه السلام باب علم النبي صلى الله عليه وآله، وبعل ابنته الطاهرة سيدة نساء العالمين وأبو الحسنين سيدى شباب أهل الجنة.

وهو القرآن الناطق.

والحق المبين.

وهو يعسوب الدين.

ففضائله ومناقبه لا تعد ولا تحصى، ولا يسع المقام عن ذكر فضائل قائد الغر المحجلين أمير المؤمنين علي عليه السلام.



الامام الحسين عليه السلام وارتكازه على سيــرة النبي صلى الله عليه وأله و علي أمير المؤمنين عليه السلام في عاشوراء

* الدكتور عبد الكاظم محسن الياسري

الإمام الحسين (عليه السلام) في قيامه ضد الظلم والطغيان جعل من الـرسـول وحديثه مرتكزاً من أهم مرتكزات هذه القيام المقدس، واتخذ منه وسيلة من وسائل الاحتجاج على القوم وإيضاح الحق من الباطل، ويمكن أنْ نلحظ ذلك في جانبين:

الجانب الأول

اقتباس أحاديث الرسول بنصها أو بمعناها وإدخالها في بنية خطابه، لأنَّ السنة تمثل جانباً من جوانب التشريع الإسـلامـي، وما ورد منها في كلام الرسول يعد الالتزام به واجباً شرعياً على المسلم، وقد أشار أحد الباحثين إلى هذه المسألة بقوله: (لا يـرد إلَّا في المواقف التي يتطلب فيها إظهار الحجة والبرهان، والقصدية في ظلم حق أهل البيت وإنكاره واضحة عند الأُمويين). (التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية:٣٣).

ويبدو من هذا أنَّ الإمام الحسين عليه السلام يستعمل الحديث النبويَّ في مواقف محددة يريد من خلالها إثبات حق أهل البيت عليهم السلام في

تولي أُمور المسلمين، وبيان الظلم الذي تعرضوا له، والطريقة التي اغتصب فيها هذا الحق، يقول الإمام الحسين عليه السلام في خطبة له أمام القوم في كربلاء: «أيها الناس إنَّ رسول الله قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أنْ يدخله مدخله». (أمالي المفيد:٢٢)

ويبدو واضحاً من نص هذا الحديث أنَّ الإمام الحسين عليه السلام أراد من الاحتجاج به إثبات حقيقة لا تقبل الشك هي مسؤوليته تجاه الأُمَّة في ظل حكم جائر، لأنَّ قول الرسول يسوغ القيام ضدَّ الحاكم الظالم الفاسق الذي تعدى حدود الله، وحكم بغير ما أنزل الله، فالإمام الحسين عليه السلام وارث النبيّ صلى الله عليه وآله وهو صاحب الحق في تولي قيادة الأُمَّة وهو أول المعنيين بهذا الحديث. (التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية:٣٤)

ومن صور احتجاجه بالحديث النبويّ ما ورد في خطابه عليه السلام بين المعسكرين، وحديثه مع جيش عمر بن سعد قبل أنْ يبدأ القتال، قال: «أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أنَّ رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) قال لي ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة» فإنْ صدقتموني بما أقول وهو الحق، فو الله ما تعمدت كذباً مذ علمت أنَّ الله يمقت عليه أهله...». (الكامل في التاريخ:٢٨٧/٣)

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام أراد من الاحتجاج بهذا الحديث تذكير القوم بالمكانة الكبيرة له ولأخيه الحسن عليه السلام عند الله ورسوله، فهما سيدا شباب أهل الجنة، وهما إمامان إنْ قاما وإنْ قعدا، وطاعتهم مفترضة، ولا شك أنَّ هؤلاء القوم يعرفون ذلك حقاً وصدقاً وبينهم من سمع ذلك من الرسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، لقد أراد الإمام من هذا إلقاء الحجة على هؤلاء القوم، وأراد أنْ يبين لهم أنَّ ما يريدون الإقدام عليه عمل يُغضب الله ورسوله، وهو يريدهم أنْ يقرروا بأنفسهم حقيقة هذا الكلام وصدقه؛ لذا أحالهم على جماعة من الصحابة سمعوا هذا الحديث من الرسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، ولا يتبادر إلى الذهن أنَّ الإمام الحسين عليه السلام يريد من هذا استعطافهم ليتركوه، فهو يعرف المصير الذي ينتظره حين قدم إلى العراق.

وإذا تجاوزنا نقل الحديث بنصه في سياق الخطاب الحسيني نجده يفيد من الحديث بصورة أُخرى غير النقل النصي، هي الإفادة من دلالة الحديث ومعناه وألفاظه، ونثر هذه الدلالة في بنية الخطاب ومن أمثلة ذلك ما ورد في قوله (عليه السلام): «فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم ــ أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول ثم إنَّكم زحفتم إلى ذريته تريدون قتلهم». (بحار الأنوار:٤٥/٢)

ولا يخفى أنَّ في هذا النص إشارة إلى حديث الرسول (صلَّى الله عليه وآله وسلم): «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي». (مسند أحمد:١٨/٣)

وقد يستعير الإمام صورة وردت في الحديث النبويّ الشريف أو في كلام أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ليذكّر بها القوم ويعظهم بها، وممَّا يمثل ذلك صورة الدنيا وزوالها يقول: «إنَّه نزل من الأمر ما قد ترون وأنَّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، واستمرت حذاء، فلم يبق منها إلَّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل». (مقتل الخوارزمي:٢٣٥/٢)

وهذه الصورة التي رسمها الإمام للدنيا ليتعظ بها هؤلاء القوم الذين باعوا كلَّ شيء من أجلها تمتد جذورها إلى ما وصف به الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأمير المؤمنين حال الدنيا فقد تكرر الحديث عنها في حديث الرسول وفي نهج البلاغة، ومن ذلك قول الرسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم): «أمَّا بعد فإنَّ الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلَّا صبابة كصبابة الإناء». (نهج البلاغة:٤٣٢. مسند أحمد:٢١٤/٤)

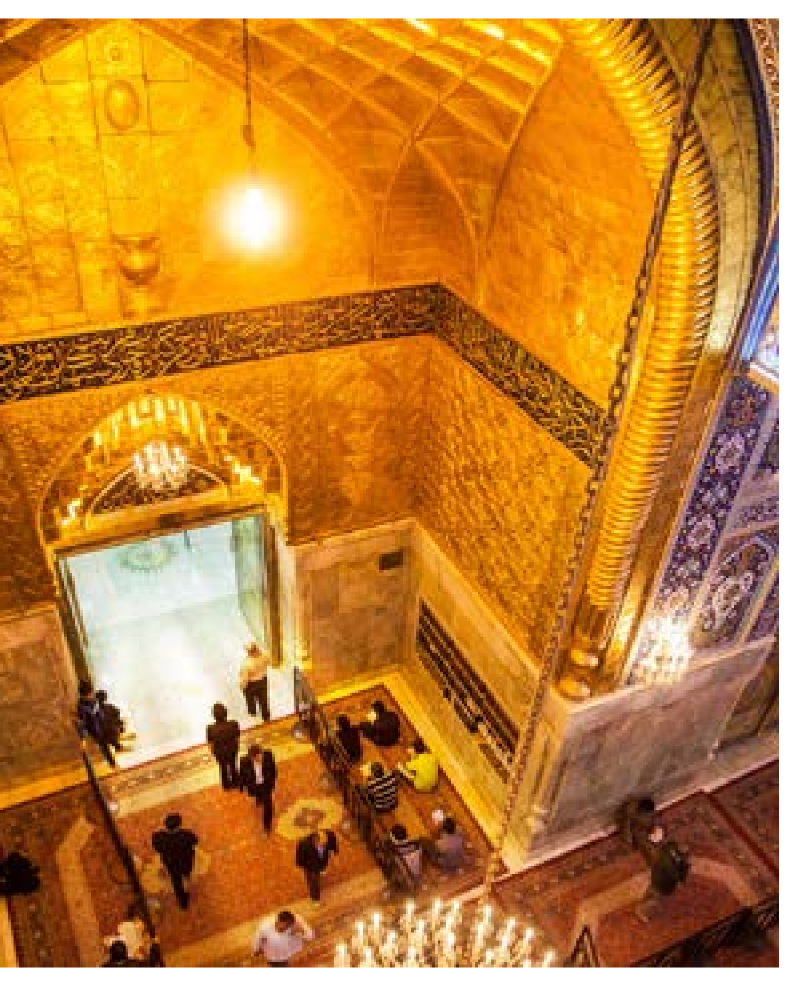
وفضلاً عن حديث الرسول صلَّى الله عليه وآله فقد أفاد الإمام الحسين عليه السلام من كلام

أبيه وخطبه ورسائله، فقد درس في مدرسة أبيه وتعلم منه البلاغة والفصاحة وورث منه علمه وبلاغته فالإمام عليٌّ عليه السلام باب مدينة العلم وهو القائل: «سلوني قبل أنْ تفقدوني»، وقد تضمن خطاب الإمام الحسين صوراً من الإرث الأدبي الذي ورد في خطب الإمام ورسائله إلى ولاته وأعدائه، ويمكن القول: (إنَّ أقوال أمير المؤمنين والإمام الحسن وسيدة نساء العالمين عليهم السلام كلُّها مثلت مصدراً من مصادر الخطاب الحسيني، وكلٌّ هؤلاء قد نهلوا من مدرسة الرسول صلَّى الله عليه وآله وتعلموا على يديه).

الجانب الثاني

الإفادة من شخص الرسول صلَّى الله عليه وآله، فالإمام الحسين أفاد من شخصية الرسول صلَّى الله عليه وآله في إلقاء الحجة على القوم الذين احتشدوا لقتاله واستحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم كلَّ شيء حتى تنكروا لصلته برسول الله صلَّى الله عليه وآله، وقد عمد الإمام إلى تذكيرهم بأنّه وارث الرسول، وهو الإمام المفترض الطاعة بحكم هذه الوراثة وهو صاحب الحق في ولاية أُمور الأُمّة، وكان حين يخرج لمخاطبة القوم ووعظهم يلبس عمامة الرسول صلَّى الله عليه وآله، ويتقلد سيفه ويركب جواده ليرسم أمامهم صورة الرسول الأعظم صلَّى الله عليه وآله، ويذكرهم بأنَّه الوارث الشرعي لجده رسول الله وهو المؤهل لقيادة الأُمّة، وهو يؤكد في كثير من مواضع خطابه على صلته برسول الله وقرابته منه، ليعرف من لم يعرف ويسمع من لم يسمع بأنَّ هذا الذي يخاطبهم هو إمام عصره وهو ابن بنت رسول الله وابن وصيّه، وهو الإمام المفترض الطاعة يقول: «أمّا بعد؛ فانسبوني وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله؟... أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أو ليس جعفر الطيار ذو الجناحين عمي؟». (الكامل في التاريخ:٢/٥٦١)

إنَّ الإمام حين طلب منهم أنْ ينسبوه، لا يعني



أنَّه غريب عنهم وهم لا يعرفونه، فهم يعرفون عنه كلَّ شيء وبينهم كثير من الذين راسلوه وطلبوا منه القدوم، وهم يعرفون أنَّه الإمام المفترض الطاعة، كلُّ ذلك معروف عندهم، إنَّما أراد الإمام من هذا تذكير هؤلاء القوم الذين أعماهم طمع الدنيا فأنساهم كلَّ شيء، كما أراد إلقاء الحجة عليهم لكي يكونوا على بصيرة من أمرهم ويميزوا بين الحق والباطل، ويعرف من لا يعرف منهم حقيقة الأمر وسبب خروج الإمام وإعلان قيامه.

وفي ضوء هذا يمكن القول: إنَّ شخصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وصلة الإمام الحسين عليه السلام به كانت حاضرة في بنية الخطاب الحسيني شكلاً ومضموناً، ومثلما أفاد الإمام الحسين من كلام جده وأبيه في حواره مع القوم فقد أفاد من شخصية الرسول في هذا الحوار.



السخاء الحسيني بحر لا ينفد أبدا

★ جعفر البياتي

المعنى اللغوي والاصطلاحي للسخاء

قيل إنّ السخاء ضد البخل.

وقد عرف معناه، وهو من ثمرة الزهد، كما أنّ البخل من ثمرة حب الدنيا.

فينبغي لكلِّ سالك لطريق الآخرة أنْ يكون حاله القناعة إنْ لم يكن له مال، والسخاء واصطناع المعروف إنْ كان له مال.

ولا ريب في كون الجود والسخاء من شرائف الصفات ومعالي الأخلاق، وهو أصل من أُصول النجاة، وأشهر أوصاف النبيين والصدّيقين، وأعرف أخلاق الأولياء والمرسلين.

السخاء في السنة النبوية

أنّ المال إنْ كان مفقوداً فينبغي أنْ يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وإنْ كان موجوداً فينبغي بذله في الله ويكون حاله الإيثار والسخاء والتباعد من الشح والبخل فإنَّ السخاء من أخلاق الأنبياء وهو أصل من أُصول النجاة

فعَنِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ مُتَدَلِّيَةٌ إِلَى الأَرْضِ مَنْ أَخَذَ مِنْهَا غُصْناً قَادَهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ». (مجموعة ورام:١/١٧١).

وَقَالَ جَابِرٌ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله:

«قَالَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام: قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِنَّ هَذَا دِينٌ ارْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي وَلَنْ يُصْلِحَهُ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا اسْتَطَعْتُمْ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ». (تحف العقول:٤٥).

وَعَنْهُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلاَمُهُ قال: «مَا جَبَلَ اللهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا عَلَى السَّخَاءِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ». (مجموعة ورام:١/١٧٠)

وَقَالَ صلَّى الله عليه وآله: «خُلُقَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ يُبْغِضُهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا فَحُسْنُ الْخُلُقِ والسَّخَاءُ وَأَمَّا اللَّذَانِ يُبْغِضُهُمَا فَسُوءُ الْخُلُقِ وَالْبُخْلُ». (مجموعة ورام:١/١٧١).

وَعَنْ بَعْضِهِمْ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلَ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءَ السَّلاَمِ وَحُسْنَ الْكَلاَمِ». (مجموعة ورام:١/١٧٠).

وَقَالَ صلَّى الله عليه وآله: «تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ وَفَاتِحٌ لَهُ كُلَّمَا افْتَقَرَ». (نهج الفصاحة:٣٧٩).

وَقَالَ صلَّى الله عليه وآله: «إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ». (إرشاد القلوب:١/١٣٦).

وما ورد في مدحه خارج عن حدِّ الإحصاء.

قال صلَّى الله عليه وآله: «إنّ السَّخَاءَ مِنَ الإيمَانِ وَالإِيمَانَ فِي الْجَنَةِ». (ميزان الحكمة: ١/٧١٧).

وقال صلَّى الله عليه وآله أيضاً: «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الجَنَّةِ، فَلاَ يَلِجُ الجَنَّةَ إِلَّا سَخِيٌّ». (جامع السعادات:٢/٨٧).

وقال صلَّى الله عليه وآله: «إِنَّ اللهَ جَوادٌ يُحِبُّ الجُودَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاَقِ، وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا». (الجعفريات:١٩٦).

وقال صلَّى الله عليه وآله: «الجَنَّةُ دَارُ الأَسْخِيَاءِ». (جامع الأخبار:١١٢).

وقال صلَّى الله عليه وآله: «شَابٌّ سَخِيٌّ مُرَهَّقٌ فِي الذُّنُوبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ شَيْخٍ عَابِدٍ بَخِيلٍ». (الكافي الشريف:٤/٤١).

وقال صلَّى الله عليه وآله أيضاً: «إِنَّ بُدَلاَءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلوا الجَنَّةَ بَصَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ، وَلَكِنْ دَخَلُوهَا بِسَخَاءِ الأَنْفُسِ، وَسَلاَمَةَ الصُّدُورِ، وَالنُّصْحِ لِلْمُسْلِمِينَ». (كنز العمال:٦/٨٥).

وقال صلَّى الله عليه وآله: «السَّخِيُّ مُحَبَّبٌ فِي السَّمَاوَاتِ مُحَبَّبٌ فِي الأَرْضِ خُلِقَ مِنْ طِينَةٍ عَذْبَةٍ وَخُلِقَ مَاءُ عَيْنَيْهِ مِنْ مَاءِ الْكَوْثَرِ وَالْبَخِيلُ مُبَغَّضٌ فِي السَّمَاوَاتِ مُبَغَّضٌ فِي الأَرْضِ خُلِقَ مِنْ طِينَةٍ سَبِخَةٍ وَخُلِقَ مَاءُ عَيْنَيْهِ مِنْ مَاءِ الْعَوْسَجِ». (الكافي

الشريف:٤/٣٩).

عن مُحَمَّد بْن يَحْيَى، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُكَارِي، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَفْدٌ مِنَ الْيَمَنِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ كَانَ أَعْظَمَهُمْ كَلاَماً وَأَشَدَّهُمْ اسْتِقْصَاءً فِي مُحَاجَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى الْتَوَى عِرْقُ الْغَضَبِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ وَأَطْرَقَ إِلَى الْأَرْضِ فَأَتَاهُ جَبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ: رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ لَكَ هَذَا رَجُلٌ سَخِيٌّ يُطْعِمُ الطَّعَامَ، فَسَكَنَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْغَضَبُ وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ لَهُ: لَوْ لاَ أَنَّ جَبْرَئِيلَ أَخْبَرَنِي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّكَ سَخِيٌّ تُطْعِمُ الطَّعَامَ لَشَرَدْتُ بِكَ وَجَعَلْتُكَ حَدِيثاً لِمَنْ خَلْفَكَ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَإِنَّ رَبَّكَ لَيُحِبُّ السَّخَاءَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ رَدَدْتُ مِنْ مَالِي أَحَداً». (الكافي الشريف:٤/٤٠).

عن عَلِيِّ بْن إِبْرَاهِيم رَفَعَهُ قَالَ: أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى عَلَيه السّلام: «أَنْ لاَ تَقْتُلِ السَّامِرِيَّ، فَإِنَّهُ سَخِيٌّ». (الكافي الشريف:٤/٤١،ح١٣).

وقال الإمام الصادق عليه السلام لبعض جلسائه: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ تُقَرَّبُ بِهِ مِنَ اللهِ وَتُقَرَّبُ مِنَ الجَنَّةِ وتُبَاعَدُ مِنَ النَّارِ؟»، فَقَالَ: بَلَى، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالسَّخَاءِ». (جامع السعادات:٢/٨٩).

عن عَلِي بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ فَضَّالٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ مَهْدِيٍّ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام قَالَ: «السَّخِيُّ الْحَسَنُ الْخُلُقِ فِي كَنَفِ اللهِ، لاَ يَسْتَخْلِي اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيّاً وَلاَ وَصِيّاً إِلَّا سَخِيّاً، وَمَا كَانَ أَحَدٌ مِنَ الصَّالِحِينَ إِلَّا سَخِيّاً وَمَا زَالَ أَبِي يُوصِينِي بِالسَّخَاءِ حَتَّى مَضَى...». (الكافي الشريف:٤/٣٩،ح٤).

فالسخاء خلق من أخلاق الأنبياء على نبينا وآله وعليهم أفضل الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾. [الدخان/١٧]

والرسول الكريم هنا هو موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. [التكوير/١٩]

فهنا المراد به المصطفى محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، الذي جمع الشمائل الشريفة كلَّها، وكان منها الكرم: المادي والمعنوي، في الأقوال والأفعال والصفات.

والسخاء خلق يحبه الله جلَّ وعلا، ويدعو عباده إليه، فقال عزَّ من قائل: ﴿...وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا... ﴾.[المزمل/٢٠]

وقال صلّى الله عليه وآله: «خُلُقَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ يُبْغِضُهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا فَحُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ وَأَمَّا اللَّذَانِ يُبْغِضُهُمَا فَسُوءُ الْخُلُقِ وَالْبُخْلُ». (مجموعة ورام:١/١٧١).

فمع أنَّ السخاء من حسن الخلق، إلَّا أنّه جاء مميّزاً معتنى به، مفرداً له لفظاً، ومعدوداً من بين خلقين يحبّهما الله سبحانه وتعالى اهتماماً به.

وبين السخاء والكرم والجود والسماحة، مشتركات في المعنى، وفروقات، نستطيع فهمها بعد التأمّل في هذه الأحاديث الشريفة:

عن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «الرِّجَالُ أَرْبَعَةٌ: سَخِيٌّ وَكَرِيمٌ، وَبَخِيلٌ وَلَئِيمٌ؛ فَالسَّخِيُّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيُعْطِي، وَالْكَرِيمُ الَّذِي لاَ يَأْكُلُ وَيُعْطِي، وَالْبَخِيلُ الَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يُعْطِي، وَاللَّئِيمُ الَّذِي لا يَأْكُلُ وَلا يُعْطِي». (جامع الأخبار:١١٣).

قال الشيخ الكليني: عن عِدَّة مِنْ أَصْحَابِنَا، عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مَحْبُوبٍ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: قُلْتُ لَهُ مَا حَدُّ السَّخَاءِ؟ فَقَالَ: «تُخْرِجُ مِنْ مَالِكَ الْحَقَّ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ فَتَضَعُهُ فِي مَوْضِعِهِ». (الكافي الشريف:٤/٣٩،ح٢).

وجاء عنه سلام الله عليه أيضاً أنّه قال: «السَّخِيُّ الْكَرِيمُ الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ فِي حَقِّ اللهِ». (تحف العقول:٣٧٣).

روى الشيخ الصدوق: حَدَّثَنَا أَبِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ، عَنْ يَاسِرٍ الْخَادِمِ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ: «السَّخِيُّ يَأْكُلُ مِنْ طَعَامِ النَّاسِ لِيَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ، وَالْبَخِيلُ لاَ يَأْكُلُ مِنْ طَعَامِ النَّاسِ لِئَلاَّ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ». (عيون أخبار الرضا عليه السلام:٢/١٢، ح٢٦).

فالسخاء ليس في الإعطاء فحسب، بل في مقدماته أيضاً بأنْ يمدّ الرّجل يده إلى طعام يدعى إليه تواضعاً لما يقدم له، واستجابة لدعوة الإخوان، وتشجيعاً لهم على أنْ يأكلوا من عنده، وكذا تشجيعاً لهم على الكرم، ألم نقرأ قول مولانا الإمام الحسين عليه السلام في مواعظه الشريفة بقوله: «مَنْ قَبِلَ عَطَاءَكَ، فَقَدْ أَعَانَكَ عَلَى الْكَرَمِ». (نزهة الناظر وتنبيه الخاطر:٨٣).

أمّا الجود، فيقول الشيخ محمد مهدي النراقي رحمه الله في بيانه: اتصافه (المنفق) بالجود بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير، وتختلف درجات ذلك، فاصطناع المعروف أمر وراء ما توجبه العادة والمروة، وهو الجود بشرط أنْ يكون عن طيبة من النفس، ولا يكون لأجل غرض من خدمة أو مدح أو ثناء.

إذ من يبذل المال بعوض المدح والثناء أو غيره فليس بجواد، بل هو بياع يشتري المدح بماله، لكون المدح ألذّ عنده من المال.

فالجود هو بذل الشيء عن طيبة من القلب من غير غرض.

فإذا لم يكن غرضه إلَّا الثواب في الآخرة، ورفع الدرجات، واكتساب فضيلة الجود، وتطهير النفس عن رذيلة البخل سمي جواداً. (جامع السعادات:٢/٩١).

وأمّا في بيان السماحة: حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا بَعْضُ أَصْحَابِنَا بَلَغَ بِهِ سَعْدَ بْنَ طَرِيفٍ عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ، عَنِ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْحَسَنِ ابْنِهِ عليه السلام فِي بَعْضِ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ: «يَا بُنَيَّ مَا السَّمَاحَةُ؟»، قَالَ: «الْبَذْلُ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ». (معاني الأخبار:٢٥٦).

وعن أبي مُحَمَّدٍ هَارُونُ بْنُ مُوسَى بْنِ أَحْمَدَ التَّلَّعُكْبَرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ هَمَّامٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ زِيَادِ بْنِ حَمَّادٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ نَهِيكٍ أَبُو الْعَبَّاسِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ زَيْدٍ الزَّرَّادِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَقُولُ: «خِيَارُكُمْ سُمَحَاؤُكُمْ وَشِرَارُكُمْ بُخَلاَؤُكُم». (الأُصول الستة عشر:١٢٢، ح١).

ثم قال سلام عليه: إنَّ أصحاب الكثير يهون

عليه ذلك (أي البر)، وقد مدح الله عزّ وجل صاحب القليل فقال: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [الحشر/٩]

والإمــام الحسين عليه الـسـلام يجمع كلّ فضائل الكرم والسخاء والجود والسماحة، ويضم إليها مراقي الخصال والصفات الحميدة الطيبة والأخلاق المحمودة.

هذا ما حكته لنا سيرته الطاهرة صلوات الله وسلامه عليه.

فإذا كان السخاء من الإيمان، لقول الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله: «إنّ السَّخَاءَ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِيمَانَ فِي الْجَنَةِ». (ميزان الحكمة:٧١٧/١).

وقوله صلّى الله عليه وآله: «إِنَّ أَفضَلَ النَّاسِ إيمَاناً أَبْسَطُهُمْ كَفّاً». (جامع السعادات:٨٨/٢).

فمن ينافس الحسين عليه السلام في ثبات إيمانه ورسوخه، وشموخه؟!

وإذا كان للسخاء معالم، منها الابتداء بالأولى، ومعرفة ما يجب بذله، والصدور عن طيب قلب، والإنفاق خالصاً لوجه الله تعالى، وما إلى ذلك فمن يزاحم الإمام الحسين عليه السلام في هذه المعارف والمعاني والحالات؟!

لقد بذلك صلوات الله عليه حتى أنّه لا يخشى النفاد، لأنّه أحسن الظن بالله تعالى إذ هو الرزاق ذو القوة المتين، فكان عليه السلام كما قال وكما دعا، حيث ورد عنه سلام الله عليه في جملة حكمه قوله: «... إِنَّ أَجْوَدَ النَّاسِ مَنْ أَعْطَى مَنْ لاَ يَرْجُوه... ». (نزهة الناظر وتنبيه الخواطر:٨١).

ولقد أعطى من يئس من الناس، وأعطى فوق ما ينتظر المعسر.

ولا نستغرب وهو القائل: «مَالُكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُنْتَ لَهُ، فَلاَ تَبْقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لا يَبْقَى عَلَيْك، وَكُلْهُ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَك». (نزهة الناظر وتنبيه الخواطر:٨٤).

ولقد زهد صلوات الله عليه في الدنيا وأحب للناس أنْ يأخذوا منها حاجاتهم، ولو أعطاهم من عنده ما يخالف لديه خصاصه.

فما أوفقه سلام الله عليه مصداقاً لقول جدّه المصطفى صلّى الله عليه وآله: «... مَا جُبِلَ وَلِيٌّ اللهِ إِلَّا عَلَى السَّخَاءِ، وَالسَّخَاءُ مَا يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَحْبُوبٍ أَقَلُّهُ الدُّنْيَا، وَمِنْ عَلاَمَةِ السَّخَاءِ أَنْ لاَ يُبَالِيَ مَنْ أَكَلَ الدُّنْيَا، وَمَنْ مَلَكَهَا مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ وَمُطِيعٌ أَوْ عَاصٍ وَشَرِيفٌ أَوْ وَضِيعٌ يُطْعِمُ غَيْرَهُ، وَيَجُوعُ وَيَكْسُو غَيْرَهُ، وَيَعْرَى وَيُعْطِي غَيْرَهُ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ قَبُولِ عَطَاءِ غَيْرِهِ، وَيُمَنُّ بِذَلِكَ وَلاَ يَمُنُّ وَلَوْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا، لَمْ يَرَ نَفْسَهُ فِيهَا إِلَّا أَجْنَبِيّاً وَلَوْ بَذَلَهَا فِي ذَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا مَل... ». (مصباح الشريعة:٨٣)

فالسخي من بذلك ولم يخش الفقر، وأطعم غيره وجاع، وأعطى غيره وامتنع من قبول عطاء غيره، إذا كان ذلك الغير مغرضاً، أو كان السخي يخشى على نفسه الطمع.

إذن السخاء ما حظي بخصلة العفة والإباء، فهذا من كرم النفس وعزّتها، ولقد ذكر لنا التاريخ أنّ الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام قال: «إنّ السخي من بذل ولم يخش الفقر، وأطعم غيره وجاع، وأعطى غيره وامتنع من قبول عطاء غيره، إذا كان ذلك الغير مغرضاً، أو كان السخي يخشى على نفسه الطمع. إذن فالسخاء ما حظي بخصلة العفة والإباء، فهذا من كرم النفس وعزتها.

قال محمد بن طلحة الشافعي: وقد اشتهر النقل عنه صلوات الله عليه أنّه كان يكرم الضيف، ويمنح الطالب، ويصل الرحم، وينيل الفقير، ويسعف السائل، ويكسو العاري، ويشبع الجائع، ويعطي الغارم، ويشد من الضعيف، ويشفق على اليتيم، ويعين ذا الحاجة، وقل أنْ وصله مال إلّا فرقه. (كشف الغمة:٢٣٢/٢)

ولقد أجـاد من قـال في مـدح الأئمة عليهم السلام:

كـرم وجـاد قبيلهم من قبلهم
وبـنـوهـم مـن بـعـدهـم كـرمـاء
فالناس أرض في السماحة والندى
وهــمُ إذا عُــدَّ الــكـرام سـمـاء

مفاهيم صححتها النهضة الحسينية

* الشيخ حسين الخشن

مفهوم الإرجاء وتخريب الدين

المفهوم المشوّه والمصطنع الذي صاغته بني أمية ويد الأهواء مع محاولة إضفاء لبوس إسلامي عليه، هو مفهوم الإرجاء الذي ظهر في أكثر من مرحلة وبأكثر من صورة، فما المراد بهذا المفهوم؟ وما هي مخاطره؟ وما هي الجهة التي وقفت وراء صناعته؟

مفهوم الإرجاء

الارجاء لغةً بمعنى التأخير، يقال: أرجأ الأمر: أخّره، قال تعالى: ﴿ أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾. [الشعراء/٣٦]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ... ﴾.[الأحزاب/٥١]

وأمّا المعنى الاصطلاحي: فهو يرمز إلى فرقة إسلامية عرفت بالمرجئة، ويبدو أنّ اللفظ مرّ بعدّة مراحل وأطلق على أكثر من جماعة قبل أنْ يستقرّ في نهاية المطاف على معنى محدَّد.

ففي حين أطلق في بداية الأمر على الّذين توقّفوا بشأن بعض الرّموز مرجئين أمرهم إلى الله، ونسب ذلك إلى الحسن بن محمد بن الحنفية حتى قيل: إنّه أوّل من قال بالإرجاء.

وقيل عن هؤلاء المرجئة: إنّهم غالوا في أبي بكر وعمر، وتوقّفوا عن علي عليه السلام وعثمان بن عفان، وفي مرحلة لاحقة استقرّ إطلاق اللفظ على جماعة شكّلت تيّاراً واسعاً نسبيّاً وتميّزت بالاعتقاد القائل: إنّ الإيمان فعل القلب واللّسان ولا علاقة له بالعمل، فهم قدّموا الإذعان القلبي وأخّروا العمل وأرجأوه.

على هذا فالمرجئة على النقيض من الخوارج ومن جمهور الأمّة الإسلاميّة، فهم لم يحكموا بكفر مرتكب الكبيرة، كما يرى الخوارج، ولا بفسقه، كما يرى جمهور الأمّة، بل حكموا بإيمانه مرجئين أمره إلى الله.

فالإيمان عند هؤلاء عبارة عن مجرّد الإقرار بالقول وإن لم يكن مصاحباً للعمل، فأخذوا منه جانب القول وطردوا جانب العمل، فاشتهروا بالمرجئة أي المؤخرة،

وشعارهم: (لا تضرّ مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة).

فالمرجئة لا تشترط العمل في حقيقة الإيمان وترى العاصي مؤمناً وإن ترك الصلاة والصوم.

لكن الخوارج يضيّقون الأمر فيرون مرتكب الكبيرة



كافراً مخلداً في النار.

ويقابلهما المعتزلة فانّ مرتكب الكبيرة عندهم لا مؤمن ولا فاسق بل في منزلة بين الأمرين.

فزعمت انّها أخذت بالقول الوسط بين المرجئة والخوارج.

والمعروف بين المسلمين انّ مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق.

وبتقييد الإيمان بالفسق خالفت المرجئة، وبوصفه بالإيمان خالفوا الخوارج والمعتزلة.

والحاصل: انّ تحديد الإيمان بالإقرار دون العمل، أو تحديده بالمعرفة القلبية دون القيام بالأركان، يعدّ ركناً ركيناً لهذه الطائفة، بحيث كلّما أُطلقت المرجئة لا يتبادر منها إلاّ من تبنّى هذا المعنى .

ثم إنّهم رتّبوا على تلك العقيدة أُموراً :

١. انّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنّ أمر التصديق دائر بين الوجود والعدم، ومثله تفسير الإيمان بالإقرار باللسان فهو أيضاً كذلك، وليس العمل داخلاً في حقيقته حتّى يقال انّ العمل يكثر ويقل .

٢. انّ مرتكب الكبيرة مؤمن حقيقة، لكفاية التصديق القلبي أو الإقرار باللسان في الاتّصاف بالإيمان، وهؤلاء في هذه العقيدة يخالفون الخوارج والمعتزلة.

أمّا الأُولى: فلأنّهم يعدّون العمل عنصراً مؤثراً في الإيمان بحيث يكون تارك العمل كافراً، وقد اشتهر عنهم بأنّ مرتكب الكبائر كافر، وليس المؤمن إلاّ من تحرّز من الكبائر .

وأمّا الثانية: فلأنّهم يعتقدون انّ مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. والمعتزلة أخف وطأة من الخوارج، وإن كانت الطائفتان مشتركتين في إدخال العمل في حقيقة الإيمان.

٣. ان مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار وإن لم يتب ولا يحكم عليه بالوعيد والعذاب قطعاً لاحتمال شمول عفوه سبحانه له، خلافاً للمعتزلة الذين يرون أنّ صاحب الكبيرة يستحقّ العقوبة إذا لم يتب، وانّ من مات بلا توبة يدخل النار، وقد كتبه الله على نفسه فلا يعفو.

والمرجئة الذين يروي عنهم أعلامهم مثل إبراهيم النخعي وإبراهيم بن يزيد التيمي، ومن دونهما مثل سفيان الثوري وابن المبارك ووكيع وهشام وعلي بن عاصم، عن رجالهم أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسـلام نصيب: القدرية والمرجئة».(مختصر البصائر:٣٥٤)

قيل: ما المرجئة؟ قالوا: الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، وأصل ما هم عليه أنهم يدينون بأن أحدهم لو ذبح أباه وأمه وابنه وبنته وأخاه وأخته وأحرقهم بالنار أو زنى أو سرق أو قتل النفس التي حرم الله أو أحرق المصاحف أو هدم الكعبة أو نبش القبور أو أتى أي كبيرة نهى الله عنها.. أن ذلك لا يفسد عليه إيمانه ولا يخرجه منه، وأنه إذا أقر بلسانه بالشهادتين أنه مستكمل الإيمان إيمانه كإيمان جبرئيل وميكائيل صلى الله عليهما، فعل ما فعل وارتكب ما ارتكب ما نهى الله عنه!

ويحتجون بأن النبي صلى الله عليه وآله قال: أمرنا أن نقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله.

وهذا قبل أن يفرض سائر الفرائض وهو منسوخ. وقد روى محمد بن الفضل، عن أبيه، عن المغيرة بن سعيد، عن أبيه، عن مقسم، عن سعيد بن جبير قال: المرجئة يهود هذه الآمة. وقد نسخ احتجاجهم قول النبي صلى الله عليه وآله حين قـال: بني الإسـلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم شهر رمضان. (العقائد الإسلامية:٣/٣٥٣)

المرجئة خدمة بني أمية

كان المرجئة خداماً لبني أمية ومبررين لجرائمهم.

فعن مُحَمَّد بْن يَحْيَى، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مَرْوَكِ، بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الْقَدَرِيَّةَ لَعَنَ اللهُ الْخَوَارِجَ لَعَنَ اللهُ الْمُرْجِئَةَ لَعَنَ اللهُ الْمُرْجِئَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: لَعَنْتَ هَؤُلَاءِ مَرَّةً مَرَّةً وَلَعَنْتَ هَؤُلَاءِ مَرَّتَيْنِ؟! قَالَ: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ إِنَّ قَتَلَتَنَا مُؤْمِنُونَ فَدِمَاؤُنَا مُتَلَطِّخَةٌ بِثِيَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ حَكَى عَنْ قَوْمٍ فِي كِتَابِهِ ﴿ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران/٨٣]، قَالَ: كَانَ بَيْنَ الْقَاتِلِينَ وَالْقَائِلِينَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ فَأَلْزَمَهُمُ اللهُ الْقَتْلَ

بِرِضَاهُمْ مَا فَعَلُوا».(الكافي الشريف:٢/٤٠٩ح١)

ومعنى كلام الإمام الصادق عليه السلام: أنّ المرجئة زعموا أنّ قتلة الإمام الحسين عليه السلام مؤمنون من أهل الجنة ولا يعاقبون على جريمتهم! وبذلك صار المرجئة شركاء لبني أميّة في الجريمة، لأنّ من رضي بعمل قوم فقد شركهم فيه!

ويدل النص التالي على أنّ المرجئة كانوا يجادلون المعارضين لبني أمية ليأخذوا عليهم مستمسكاً للخليفة لكي يضطهدهم!

وعَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ أَبِي الْعَلَاءِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَرَأَيْتُ مَوْلًى لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَمِلْتُ إِلَيْهِ لِأَسْأَلَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فَإِذَا أَنَا بِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام سَاجِداً فَانْتَظَرْتُهُ طَوِيلًا فَطَالَ سُجُودُهُ عَلَيَّ، فَقُمْتُ وَصَلَّيْتُ رَكَعَاتٍ وَانْصَرَفْتُ وَهُوَ بَعْدُ سَاجِدٌ فَسَأَلْتُ مَوْلَاهُ مَتَى سَجَدَ؟ فَقَالَ: مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامِي رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «أَبَا مُحَمَّدٍ ادْنُ مِنِّي»، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَسَمِعَ صَوْتاً خَلْفَهُ فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ الْمُرْتَفِعَةُ؟»، فَقُلْتُ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ الْقَوْمَ يُرِيدُونِّي فَقُمْ بِنَا»، فَقُمْتُ مَعَهُ فَلَمَّا أَنْ رَأَوْهُ نَهَضُوا نَحْوَهُ فَقَالَ لَهُمْ: «كُفُّوا أَنْفُسَكُمْ عَنِّي وَلَا تُؤْذُونِي وَتَعْرِضُونِي لِلسُّلْطَانِ فَإِنِّي لَسْتُ بِمُفْتٍ لَكُمْ»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي وَتَرَكَهُمْ وَمَضَى فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قَالَ لِي: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ وَاللهِ لَوْ أَنَّ إِبْلِيسَ سَجَدَ لِلهِ عَزَّ ذِكْرُهُ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّكَبُّرِ عُمُرَ الدُّنْيَا مَا نَفَعَهُ ذَلِكَ وَلَا قَبِلَهُ اللهُ عَزَّ ذِكْرُهُ مَا لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْعَاصِيَةُ الْمَفْتُونَةُ بَعْدَ نَبِيِّهَا صلى الله عليه وآله وَ بَعْدَ تَرْكِهِمُ الْإِمَامَ الَّذِي نَصَبَهُ نَبِيُّهُمْ صلى الله عليه وآله لَهُمْ فَلَنْ يَقْبَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ عَمَلًا وَلَنْ يَرْفَعَ لَهُمْ حَسَنَةً حَتَّى يَأْتُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ وَيَتَوَلَّوُا الْإِمَامَ الَّذِي أُمِرُوا بِوَلَايَتِهِ وَيَدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الَّذِي فَتَحَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ لَهُمْ، يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله خَمْسَ فَرَائِضَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ وَوَلَايَتَنَا، فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي أَشْيَاءَ مِنَ الْفَرَائِضِ الْأَرْبَعَةِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي تَرْكِ وَلَايَتِنَا لَا وَاللهِ مَا فِيهَا رُخْصَةٌ». (الكافي الشريف:٨/٢٧٠-٢٧١)

الإرجاء دين الملوك

تشير الدلائل والشواهد التاريخي إلى دور السلطة السياسية في صناعة و(فبركة) هذا المفهوم، وعلى الأقل تأييده والترويج له، باعتراف الخليفة العباسي المأمون.

فقد سأل المأمون النضر بن شميل: (أتدري ما الإرجاء؟ فأجابه النضر: دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقص من دينهم، قال: صدقت). (البداية والنهاية:١٠/٣٠٣. تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر:٣٣/٣٠١)

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي عن شيخه وأستاذه أنّ (أوّل من قال بالإرجاء المحض معاوية وعمرو بن العاص، كانا يزعمان أنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، ولذلك قال معاوية لمن قال له: حاربت من تعلم وارتكبت ما تعلم، قال: وثقت بقوله تعالى: {... إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...}[الزمر/٥٣]).(شرح نهج البلاغة:٦/٣٢٥)

ولمّا أنكرت عائشة على معاوية قتله حجر بن عدي أجابها بما يوافق عقيدة الإرجاء، قائلاً: (دعيني وحجراً حتّى نلتقي عند ربّنا عزّ وجل).(المعجم الكبير للطبراني:١٩/٣٢٠. البداية والنهاية:٦/٢٣٥)

الإرجاء وتخريب الدين

إنّ خطورة هذه العقيدة أنّها تبرر للحاكم استتاره واستبداده بالسلطة وممارساته القمعية بحق النّاس، كما تبرّر له انحرافه على مستوى سلوكه الشخصي وتجاوزه حدود الله وشرعه، فالعذر عنده جاهز وهو أنّ العصيان لا ينافي الإيمان وأنّ الأمر بيد الله، ومؤخر وموكول إلى الله تعالى.

ويظهر بعض الروايات أنّ تيّار الإرجاء أخطر من تيار الجبر؛ لأنّ المرجئة لا يكتفون برفع المسؤولية عن الظلمة المستبدين كما يفعل القدرية أو المجبرة، بل يقدّمون لهم الأعذار على جرائمهم ويحكمون بإيمانهم.

قال الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه بشأن المرجئة: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ إِنَّ قَتَلَتَنَا مُؤْمِنُونَ فَدِمَاؤُنَا مُتَلَطِّخَةٌ بِثِيَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...».(البرهان:١/٧١٧)

هذا فيما يرتبط باستغلال هذه العقيدة من قبل السطلان.



وأمّا مخاطرها على المستوى الإسلامي العام فليست أقلّ شأناً، لأنّها تساعد على التحلل الخلقي والتحرّر من الضوابط الشرعية، وهذا في الحقيقة يمثّل تخريباً للدين وتجاوزاً للقيم وإشاعة للفاحشة.

لذا لم يتوان أئمة أهل البيت عليهم السلام عن مجابهة تيار الإرجاء وبيان مخاطره على عامة المسلمين وعنصر الشباب تحديداً، على اعتبار أنّه يقدّم لهم غطاءً شرعيّاً لجنوحهم الغرائزي وانسياقهم وراء الشهوات والملذّات.

ففي حديث عَنْ أَحْمَد بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ جَمِيلِ بْنِ دَرَّاجٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «بَادِرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْحَدِيثِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَكُمْ إِلَيْهِمُ الْمُرْجِئَة». (الكافي الشريف:٦/٤٧ح٥)

أي علّموهم في شرخ شبابهم بل في أوائل ادراكهم وبلوغهم التميز من الحديث ما يهتدون به إلى معرفة الأئمّة عليهم السلام والتشيّع قبل أن يغويهم المخالفون ويدخلهم في ضلالتهم فيعسر بعد ذلك صرفهم عن ذلك، والمرجئة في مقابلة الشيعة من الإرجاء بمعنى التأخير لتأخيرهم علياً عليه السلام عن مرتبته، وقد يطلق في مقابلة الوعيدية إلاّ أنّ الأوّل هو المراد.(تهذيب الأحكام:٨/١١١ح٣٨١)

هناك اتّخذت الإرجاء طابعا جديداً مفاده: أنّ الإيمان في القلب لا في الظاهر أو الطّقوس العبادية والمراسم الدينية، فالمهم أن يُطهّر المرء قلبه من الغل والدنس، ويلتزم القوانين العامّة ويحافظ على النّظام ولا يعتدي على الآخرين أو ينتقص من حقوقهم.

وهذا المنطق رغم أنّه يبدو جميلاً وبرّاقاً إلا أنّه لا يعكس الحقيقة كاملة، بل يخفي في ثناياه محاولة للهروب من الشريعة وفرائضها العبادية مع الاستهانة بالمحرمات والمعاصي، وترك الواجبات الفرائض.

إنّ الإسلام لا يُغفل إطلاقاً عن دور القلب ومحوريّته في فعل الإيمان، كما لا يغفل التأكيد على دور العمل الصالح وحفظ النظام في حركية الإيمان.

لذا جاء الإيمان مقروناً بالعمل الصالح في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم أو في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

في حديث طويل عن أَبَان قَالَ: قال سُلَيْمٌ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام في قوله تعالى {إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئينَ مَنْ

آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون}[البقرة/٦٢]، قُلْتُ: فَمَنْ لَقِيَ اللهَ مِنْهُمْ عَلَى الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: «هُوَ فِي مَشِيَّتِهِ إِنْ عَذَّبَهُ فَبِذَنْبِهِ وَإِنْ تَجَاوَزَ عَنْهُ فَبِرَحْمَتِهِ»، قُلْتُ: فَيُدْخِلُهُ النَّارَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ بِذَنْبِهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَنَى اللهُ {أَنَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِين} لِأَنَّ الَّذِينَ عَنَى اللهُ أَنَّهُ لَهُمْ وَلِيٌّ {وَأَنَّهُ لا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللهَ وَالَّذِينَ {عَمِلُوا الصَّالِحاتِ} وَالَّذِينَ {لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ}» قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا الْإِيمَانُ وَمَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «أَمَّا الْإِيمَانُ فَالْإِقْرَارُ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْإِسْلَامُ فَمَا أَقْرَرْتَ بِهِ وَالتَّسْلِيمُ وَالطَّاعَةُ لَهُمْ»، قُلْتُ: الْإِيمَانُ الْإِقْرَارُ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِهِ؟ قَالَ: «مَنْ عَرَّفَهُ اللهُ نَفْسَهُ وَنَبِيَّهُ وَإِمَامَهُ ثُمَّ أَقَرَّ بِطَاعَتِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»، قُلْتُ: الْمَعْرِفَةُ مِنَ اللهِ وَالْإِقْرَارُ مِنَ الْعَبْدِ؟ قَالَ: «الْمَعْرِفَةُ مِنَ اللهِ دُعَاءٌ وَحُجَّةٌ وَمِنَّةٌ وَنِعْمَةٌ وَالْإِقْرَارُ مِنَ اللهِ قَبُولُ الْعَبْدِ {يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ} وَالْمَعْرِفَةُ صُنْعُ اللهِ تَعَالَى فِي الْقَلْبِ وَالْإِقْرَارُ فَعَالُ الْقَلْبِ مِنَ اللهِ وَعِصْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ فَمَنْ لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ عَارِفاً فَلَا حُجَّةَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ وَيَكُفَّ عَمَّا لا يَعْلَمُ فَلَا يُعَذِّبُهُ اللهُ عَلَى جَهْلِهِ فَإِنَّمَا يَحْمَدُهُ عَلَى عَمَلِهِ بِالطَّاعَةِ وَيُعَذِّبُهُ عَلَى عَمَلِهِ بِالْمَعْصِيَةِ وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُطِيعَ وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْصِيَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْرِفَ وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْهَلَ هَذَا مُحَالٌ...».(كتاب سليم:٢/٦١٠)

فهنا أمير المؤمنين علي عليه السلام يبيّن أنّ المذنب والعاصي يتم محاسبته ويعذّبه الله تعالى بسبب معصيته، حتى وإن كان مؤمناً.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يقبل إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان».(نهج الفصاحة:٦٨٤/ح٢٥٥٣)

فقبول الإيمان مشروط بالعمل الصالح، ولا يقبل عملٍ إلّا بالإيمان بالولاية.

لكنه في الوقت عينه يرى أنّ الانفتاح على الله واللجوء إليه والالتزم بشريعته وحلاله وحرامه جزء لا يتجزأ من مفهوم الإيمان، وله دوره الكبير في تعزيز روح المسؤولية الإنسانية والالتزام بالقوانين العامة واحترام الآخرين.

وقد روى عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ مَعْرُوفٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نَجْرَانَ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْقَصِيرِ قَالَ: كَتَبْتُ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَعْيَنَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَسْأَلُهُ عَنِ الْإِيمَانِ مَا هُوَ فَكَتَبَ إِلَيَّ: «مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَعْيَنَ سَأَلْتَ رَحِمَكَ اللهُ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَعَقْدٌ فِي الْقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ...».(الكافي الشريف:٢/٢٧/ح١)

العجيب في الوقت الذي نلاحظ أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد حاربوا الإرجاء وحذروا من خطورته، مؤكّدين على أهمية العمل ومحوريته في الإيمان، وإذا بهذا المفهوم يقتحم ساحة محبّي أهل البيت عليهم السلام ويظهر في أوساطها، ليصبح الأئمة عليهم السلام عنوان الإرجاء وبابه الواسع بعد أن كانوا عنوان محاربته وأشد الناس في مواجهته.

لقد شاعت في بعض الأوساط فكرة خاطئة مفادها:



أنّ الشيعي لا يعذّب النار، المؤمن منهم والفاسق، والمطيع والعاصي، فليس شرطاً لدخول الشيعي الجنة أن يعمل الصالحات ويترك المحرمات، بل يكفي أنّه يؤمن بولاية أهل البيت عليهم السلام، يذرف دمعة على الحسين عليه السلام وينبض قلبه بمحبته ومحبة أهل بيته عليهم السلام، وقد عبّر بعض الشعراء عن هذا المعنى في قوله:

سوّدت صحيفة أعمالي *** ووكلت الأمر إلى حيدر

إنّ هذا المفهوم خاطئ ومخالف للشريعة الإلهية، فمقتضى العدل الإلهي أن لا يتساوى المحسن والمسيء في جنس الجزاء ثواباً وعقاباً، كما أنّ حكمته تعالى تأبى أن يسمح بتجاوز شريعته.

والمفهوم الآنف يوازي إسقاط الشريعة ويجرّئ الناس على فعل المعاصي والمحرمات وترك الواجبات والفرائض.

وأمّا النقل فكيفيك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.[النساء/١٢٣-١٢٤]

على أنّ الأئمة عليهم السلام قد واجهوا هذا النمط من الإرجاء كما واجهوا الإرجاء المعروف.

فعَنْ أَحْمَدَ بْنِ النَّضْرِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شِمْرٍ، عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، قَالَ: قَالَ لِي: «يَا جَابِرُ، أَيَكْتَفِي مَنْ يَنْتَحِلُ التَّشَيُّعَ أَنْ يَقُولَ بِحُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَوَ اللهِ مَا شِيعَتُنَا إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللهَ وَأَطَاعَهُ، وَمَا كَانُوا يُعْرَفُونَ يَا جَابِرُ إِلَّا بِالتَّوَاضُعِ، وَالتَّخَشُّعِ، وَالْأَمَانَةِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ اللهِ، وَالصَّوْمِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، وَالتَّعَاهُدِ لِلْجِيرَانِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَأَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْغَارِمِينَ وَالْأَيْتَامِ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَكَفِّ الْأَلْسُنِ عَنِ النَّاسِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، وَكَانُوا أُمَنَاءَ عَشَائِرِهِمْ فِي الْأَشْيَاءِ». فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ، مَا نَعْرِفُ الْيَوْمَ أَحَداً بِهذِهِ الصِّفَةِ. فَقَالَ: «يَا جَابِرُ، لَا تَذْهَبَنَّ بِكَ الْمَذَاهِبُ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ أُحِبُّ عَلِيّاً وَأَتَوَلَّاهُ، ثُمَّ لَا يَكُونَ مَعَ ذلِكَ فَعَّالًا؟! فَلَوْ قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ رَسُولَ اللهِ، فَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ عليه السلام، ثُمَّ لَا يَتَّبِعُ سِيرَتَهُ، وَلَا يَعْمَلُ بِسُنَّتِهِ، مَا نَفَعَهُ حُبُّهُ إِيَّاهُ شَيْئاً؛ فَاتَّقُوا اللهَ، وَاعْمَلُوا لِمَا عِنْدَ اللهِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ قَرَابَةٌ، أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَأَكْرَمُهُمْ عَلَيْهِ أَتْقَاهُمْ، وَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ. يَا جَابِرُ، وَاللهِ مَا يُتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالى - إِلَّا بِالطَّاعَةِ، وَمَا مَعَنَا بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَلَا عَلَى اللهِ لِأَحَدٍ مِنْ حُجَّةٍ؛ مَنْ كَانَ لِلهِ مُطِيعاً، فَهُوَ لَنَا وَلِيٌّ؛ وَمَنْ كَانَ لِلهِ عَاصِياً، فَهُوَ لَنَا عَدُوٌّ؛ وَ مَا تُنَالُ وَلَايَتُنَا إِلَّا بِالْعَمَلِ وَالْوَرَعِ».(الكافي الشريف:٣/١٨٧-١٩١/ح٣٦)

هذا منطق أهل البيت عليهم السلام المتناغم مع كتاب الله تعالى، وهو يؤكّد على أنّ الإيمان لا ينفك عن العمل وليس هو مجرد نبضة قلب أو دمعة عين تذرف على مصاب الحسين عليه السلام.

وليت شعري ألم تكن قلوب بعض الذين خذلوا الإمام الحسين عليه السلام تنبض بمحبته وعيونهم تذرف الدمع على مصابه فهل يدخل هؤلاء الجنة برفقة العباس وعلي الأكبر والحر الرياحي...؟!

إنّ القيام الحسيني بدروسها العملية ونصوصها المختلفة عندما أكّدت على أنّ القيمة هي للبذل والتضحية وأدانت سكوت الرأي العام الإسلامي، مع أنّ معظم هذا الرأي هو من أصحاب النوايا الطيبة إنّها بذلك تكون قد فضحت مفهوم الإرجاء وزيّفته، بل إنّنا لا نبالغ بالقول: إنّ هذا المفهوم وغيره من المفاهيم التي ساهمت في تحييد الأمّة وتخديرها قد ساهمت في سفك دم سيد الشهداء عليه السلام والنخبة الطيبة من أصحابه وأهل بيته عليهم السلام.

إنّ الفكرة الإرجائية التي تقصر العلاقة بعلي والأئمة عليهم السلام من أهل بيته على الجانب العاطفي هي فكرة مشوّهة وليست من الإسلام في شيء.

لأنّ المحبة إن لم يصدقها العمل كانت محبة كاذبة ومخادعة، وهذا المعنى أكّدت عليه الروايات المستفيضة الواردة عن الأئمة عليهم السلام في بيان صفات الشيعة، كما في حديث الإمام الصادق عليه السلام.

عن مُحَمَّدِ بْنُ مُوسَى الْمُتَوَكِّلُ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَنَّهُ يَقُولُ: «وَاللهِ مَا شِيعَةُ عَلِيٍّ عليه السلام إِلَّا مَنْ عَفَّ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ وَعَمِلَ لِخَالِقِهِ وَرَجَا ثَوَابَهُ وَخَافَ عِقَابَهُ».(صفات الشيعة:٧)



أخوة الربانيين

* الشيخ محمد البغدادي

جاء في الذكر الحكيم: أن النبي موسى سأل الله سبحانه أن يعضده بأخيه كي يتم له أمره في هداية قومه فقال عليه السلام: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾.(طه/٢٩-٣٦)

وورد في الروايات المعتبرة أن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما ذكر في مناجاته للمولى سبحانه ما تقدم من أمر موسى عليه السلام وسؤاله الوزارة لأخيه واستعضاده به سأل الله سبحانه أن يعضده بأخيه علي عليه الصلاة والسلام فأجابه.(الفضائل الخمسة:١/٣٣٦)

وكان العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام وزير أخيه الحسين عليه السلام وعضده.

من يستقرئ سيرة مولانا أبي الفضل طيلة حياته عموما، وفي سيرته مع أخيه الحسين عليه السلام ابتداءً من المدينة وانتهاءً بمصرعه المقدّس، لا يجد فيها مغمزاً أبداً ولا وهناً ولا تراجعاً ولا تردداً، بل كله إقدام وثبات ووضوح رؤية

وتصميم، فإذن هذه المرحلة في دراسة واستطلاع أعمال هذا الفرد الأوحد قد تجاوزناها ومجال بحثنا إنما هو في مكامن العظمة فيه وأعلى المثل الإنسانية في سيرته، ومن هذه النقطة عروجنا.

إن الإسلام العزيز قد وصل في عهد يزيد إلى مفترق طرق ومنعطف خطر جداً عنده يتقرر مصيره، فإما موته الأبدي واندثاره كما آل إليه مصير الأديان السماوية قبله، وإما تجاوز هذا المنعطف إلى ما فيه بقاؤه في ساحة الوجود، وكان أبو الفضل العباس هنا... .

مع أخيه الحسين...

وذلك المنعطف.

يستنقذ الإسلام ويعبر به إلى جادة السلامة، وبمعيتهما تلك الصفوة المؤمنة البرة.

بأبي من شروا لقاء حسينٍ

بفراق النفوس والأرواحِ

أدركوا بالحسين أكبر عيدٍ

فغدوا في منى الطفوف أضاحي

(إبصار العين:٥٨)

والعباس بن علي أروع جوهرة في ذلك الميدان... .

ميدان التسابق إلى التبرع بالأرواح.

للفوز بصحبة الحسين عليه السلام سيد الجنان.

أبو الفضل - ويكفيك بها كنية تعبّر عن صاحبها تعبيراً صادقاً كاشفاً عن جوهره ودخيلته وما يفيض عنه من سلوك حميد فهي ليست كبقية الأسماء والكنى المرتجلة - من بعض بني هاشم ممن حملوا خصيصة تميّزوا بها عن غيرهم - بما فيهم بقية الهاشميين - وخصيصتهم وميزتهم أن لا أحد يشير إليهم بمغمز في جانب ما، في طول رحلتهم الحياتية.

فحين تستقرئ سجل حياة أبي الفضل من أولها إلى آخرها لا تجد فيه غير ما يخضعك إجلالاً فما في حياته من شاردة أو واردة تخدش ذلك الكيان المقدّس.

وأحداث الطف مقطع من تلك الحياة الكريمة لا تجد فيها من أولها إلى آخرها لأبي الفضل موقفاً فيه وهن أو تراجع أو تردد أو استحياء في نصرة الحق أو في مواصلة المسير حتى وسم بالعصمة المكتسبة فهو في جوهره برزخ بين الإمام المعصوم وبين عظماء الأمة في خصائصهم وسلوكهم؛ إذ ارتقى عن هذه إلاّ أنه لم يبلغ تلك.

كان العباس عليه السلام لأخيه الحسين عليه السلام كما كان أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كان عماد حركته ونظام جيشه، كلما اشتدت بالحسين عليه السلام الخطوب، واحتاج لمن يسدّ ثغراً، أو يردّ كريهة، أو يفلّ مستعصياً، وجّه أبا الفضل لنجح حاجته فلا يرجع إلاّ بنجحها، أو لا يرجع، كما هو الحال في حركته الأخيرة التي لم يعد منها إلى مضارب الحسين.

لقد هدّ مصرعه الحسين عليه السلام، وهدّ كل من يتمسك بحبل الإسلام وعروته.

العباس ألم ممضّ في قلوب الأئمة المعصومين وجميع الهاشميين بل في قلب كل مؤمن ومؤمنة.

شُمِتَ بنا بعد أبي الفضل، فما ظنّ: برجل هذا موقعه في الساحة الإسلامية.

اللهم ارزقنا قبول أبي الفضل لنا واحشرنا تحت رايته فإنها منصورة عندك دنيا وأخرى ولا ريب.

والله: لو لم يقتل أولئك الأرجاس يوم الطف غير أبي الفضل لكفى بها بائقة وموجبة لكل عذاب وهوان.

فكيف وقد بلغت سيوفهم نحر الحسين خليفة الله في الأرض والقائم مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أخذت منه مأخذاً.

فما ترى الله سبحانه صانعاً بهم؟! وإلى أين ستؤول بهم فعلتهم وكل ما جرى إلى اليوم؟! إنما هي إرهاصات العذاب وليست به.



دور شهر رمضان في تربية النفس

* مهدي أحمد السعدي

عباد الله، ها هو شهر الصيام والقيام قد حل بساحتكم، ونزل ضيفا عليكم، يستحثُّ الهِمم، ويستنهض الأرواح، وينبه النفوس؛ لتقوم من غفلتها، وتصحو من نومتها، وتعود إلى بارئها.

جاءنا رمضان؛ لتتطهر فيه القلوب، وتتزكى فيه النفوس، وتحيا فيه الأرواح، وتغفر فيه الذنوب، وترفع فيه الدرجات، وتمحى فيه السيئات، وتعتق فيه الرقاب.

جاءنا رمضان لتقوية الإرادة، وصدق العزيمة، والانتصار على النّفس، والتّسامي بها فوق الشّهوات، والتّرفع بها عن الأحقاد والضّغائن والكراهية والعناد.

جاءنا رمضان بأيامه الفاضلة، ولياليه المباركة؛ التي لا تنقضي عجائبها، ولا تنتهي نفحاتها، فكلها هبات ونعم، وعطايا ومنح، وخيرات وبركات.

جاءنا موسم الطاعة والعبادة، موسم الجود والرحمة، موسم العفو والمغفرة، موسم الفوز بالجنان والعتق من النيران.

أبعاد التربية النفسية

للتربية أبعاد مختلفة نذكر منها على النحو الآتي:

البعد المعنوي:

إنّ ترك الأكل والشرب وسائل الماذات والشهوات من طلوع الفجر وحتى الغروب ليس بالأمر الهين، فإنه يحتاج لإرادة قوية وصبر وعزيمة وإيمان، ومجاهدة للنفس لترك عالم الماديات والتحليق في سماء المعنويات التي جعلها الله جزاء للصائمين القائمين القانتين والمستغفرين بالأسحار.

ومن أكثر أدعية الصائم في شهر الرحمة هي طلب الغفران والعتق من النيران، والشوق الكبير للفوز بجنة جعلها الله للمتقين وللمؤمنين، فرجاء الإنسان برحمة الله يبعث فيه الارتياح والسعادة، ويقوي عزيمته وإرادته وصبره، فالخوف من نار أعدت للمذنبين والرغبة بجنة أعدت للمتقين تجعله يستقيم، فكل خطوة في هذه الحياة بحاجة إلى رجاء وخوف.

البعد الروحي:

الصوم ينقل الإنسان إلى عالم ملائكي، وأجواء روحانية عظيمة، لمن يطبق الصوم بشكل

صحيح، لأن الصيام ليس ترك الطعام والشراب فقط، فالصيام ليس حالة جسدية فقط، بل حالة روحية ونفسية وسلوكية، فالصوم وسيلة تربوية لبناء الفضائل، والزيارة في التقوى، ودلالة ذلك واضحة في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[البقرة/١٨٣]

فما يصنع الصائم بصيامه إذا لم يصن لسانه وسمعه وبصره وجوارحه؟!

شهر رمضان فرصة عظيمة للتدريب على الالتزام والاستقامة والعمل بما يأمر به الدين والعمل بالواجبات وترك المحرمات، وكل ما كان الإنسان مستقيمًا أكثر كان أقرب درجة إلى الله تعالى.

فالصوم يطهر النفس ويهذبها، فهو يفتح شغاف القلب، ويمنح القدرة والقوة، ويبعث في النفس النور والصفاء.

البعد التربوي والأخلاقي:

من يلامس جسده نسيم ونفحات هذا الشهر المبارك، فإنه ينقله من حالة السكون والركود إلى حالة الحركة والعمل الدؤوب، ليصبح بذرة تبعث الحياة وروح التفاؤل في كل أركان الدنيا.

فشهر رمضان هو فرصة مناسبة للتربية الأخلاقية والسلوكية، فهو عامل محفز لعمل الخير، وطريقة للسير على الأخلاق الكريمة كالصبر والحلم والجود والكرم ومجاهدة النفس، والابتعاد عن الشر والبخل والغرور والطمع والبطر.

فقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: ((صوم الجسد الإمساك عن الأغذية بإرادة واختيار خوفًا من العقاب ورغبة في الثواب والأجر، صوم النفس إمساك الحواس الخمس عن سائر المآثم، وخلو القلب من جميع أسباب الشر)).

البعد الاجتماعي:

شهر رمضان منعطف مهم في حياتنا الاجتماعية نحو التغيير للأفضل، والسير قدمًا نحو الطريق المستقيم والصحيح، وتحمل أعباء المسؤولية الفردية والاجتماعية.

إن مراقبة الإنسان لنفسه للحفاظ على جوارحه وأفعاله وكل حركة منه خلال شهر رمضان، لها دور مهم في بناء الإنسان خارجيًا، إذ سرعان ما تنعكس على ظاهره، ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}.[الرعد/١١]

ولو أن أهل المعاصي وكسبة الذنوب إذا هم حذروا زوال نعم الله وحلول نقمته وتحويل عافيته أيقنوا أن ذلك من الله جل ذكره بما كسبت أيديهم، فأقلعوا وتابوا وفزعوا إلى الله جل ذكره بصدق من نياتهم وإقرار منهم بذنوبهم وإسائتهم لصفح لهم عن كل ذنب وإذا لأقالهم كل عثرة ولرد عليهم كل كرامة نعمة، ثم أعاد لهم من صلاح أمرهم ومما كان أنعم به عليهم كل ما زال عنهم وأفسد عليهم. (شرح أصول الكافي:١٢/ ٣٥٢)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((كما تكونوا يولى عليكم)).(كنز العمال: ١٤٩٧٢)

وعن الإمام الجواد عليه السلام أنّه قال: ((وكل امة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبذوه، وولاهم عدوهم حين تولوه)).(الكافي: ٨/٥٣، ح١٦)

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام وهو يوبّخ أصحابه: ((أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي)).(نهج البلاغة: الخطبة ٩٧)

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قدسي: ((قال الله جل جلاله: إذا عصاني من خلقي من يعرفني سلطت عليه من خلقي من لا يعرفني. (من لا يحضره الفقيه:٤/ ٤٠٤، ح٥٨٧١)

من الروايات الشريفة الواردة نفهم كيفية التغييّر في الإنسان، وما هو أسباب تغيير الأحوال في المجتمعات البشرية، فمما ورد في قولهم عليهم السلام على النحو الآتي:

أ: إنّ الإنسان إذا أراد تغيير الحال من وضع إلى غيره، عليه أن يغيّر ما في نفسه، فهو تلازما.

ب: إنّ من يولّى على رقاب الناس لا يمكن الحكم إلاّ بعد الانفصال عن الله تعالى.

ج: شهر رمضان هو السبيل الوحيد للرجوع إلى الله تعالى والتواصل مع الخالق، فإذا تغيّر الإنسان نفسيّاً سيتم تحويل الحال إلى أفضل.

فدلالة الآية الكريمة على أن التغيير الداخلي للإنسان يسهم بدور كبير في تغيير بناء الأمة، لأن الفرد هو جزء من مجتمع، ومن الخطأ بين الناس أن التغيير والإصلاح إنما يحدث ويبدأ من المجتمع نحو الأفراد، بل إن عملية البناء والتغيير إنما تحدث من الأفراد أنفسهم متجهة نحو الآخرين، وبتظافر الجهود الفردية واجتماعها تحدث عملية البناء والتغيير الاجتماعي للأمة، وبالتالي متى ما يحدث التغيير الداخلي يحدث التغيير الخارجي، فإن كان خيرًا فخير أو شرًا فشر.(مجمع البيان:٥/١٥)

وهذا ما حثت عليه الشريعة الإسلامية بأحكامها الشرعية والاخلاقية التي تبني إنسانًا متكاملًا صالحًا لبناء مجتمع، وكذلك ما نلحظه في قول الرسول صلى الله عليه وآله: ((من أصلح باطنه أصلح الله ظاهره)).(الكافي:٨/ ٣٠٧).

فشهر رمضان تتعزز فيه روح التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع، ليجد الغني مضض الجوع فيعطف ويحن على الفقير.

وكذلك أيام شهر رمضان تساعد في توطيد العلاقات العائلية فيما بينهم، والعوائل المفككة من الممكن أن يكون هذا الشهر الفضيل سبب تصالح



الخصماء، سواء على صعيد الآباء والأبناء أو الأخوة والأخوات والأقارب، وبذلك تعالج مشكلة القطيعة بين صلة الأرحام، قال تعالى: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ}.[الأنفال/٧٥]

وتبادل الزيارات بين الأصدقاء والأيتام والمحتاجين.

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}.[الحجرات/١٣]

فهنا فرصة لتطهير النفس من امراض القلوب التي تساعد في تباعد الأفراد، وتزرع الأحقاد والعداوات فيما بينهم.

البعد الصحي:

إن الله سبحانه وتعالى لا يأمر أو ينهى عن شيء إلا وفيه حكمة ومصلحة للإنسان سواء أكانت المصلحة متحققة في الدنيا أم مؤجلة للآخرة.

للصوم فوائد صحية عديدة نذكر أن ما جاء عن الصادق الأمين النبي صلى الله عليه وآله: ((صوموا تصحوا)). (بحار الأنوار:٥٩/ ٢٦٧)

فهو كلام جامع لكثير من المعاني التي تصح الصحة أن كانت جسدية أو نفسية .

ونذكر قليلًا مما يعالجه الصوم في الصحة الجسدية، منها ما يلي:

التخلص من الدهون المتراكمة في الجسد، الناتج من الإسراف بتناول الأطعمة المختلفة بمرور الوقت.

تخليص الجسم من الفضلات الزائدة التي تكون وسط صالح لتكاثر الميكروبات والأمراض.

إنّ الإمساك عن الطعام يعتبر علاجًا فعالًا لكثير من الأمراض.

تجديد الخلايا الجذعية وتقوية جهاز المناعة.

الامساك عن الطعام يرفع من مستوى الذكاء يسبب تأثير إيجابي على الدماغ.

كذلك يساعد على انخفاض ملحوظ في معدل السكر بالدم.

يقلل من معدل كريات الدم البيض في الدم.

ساعد بتجويع الخلايا السرطانية، والحماية من الإصابة بها.

التبري ومراتبه

* السيد خليل إبراهيم حسب

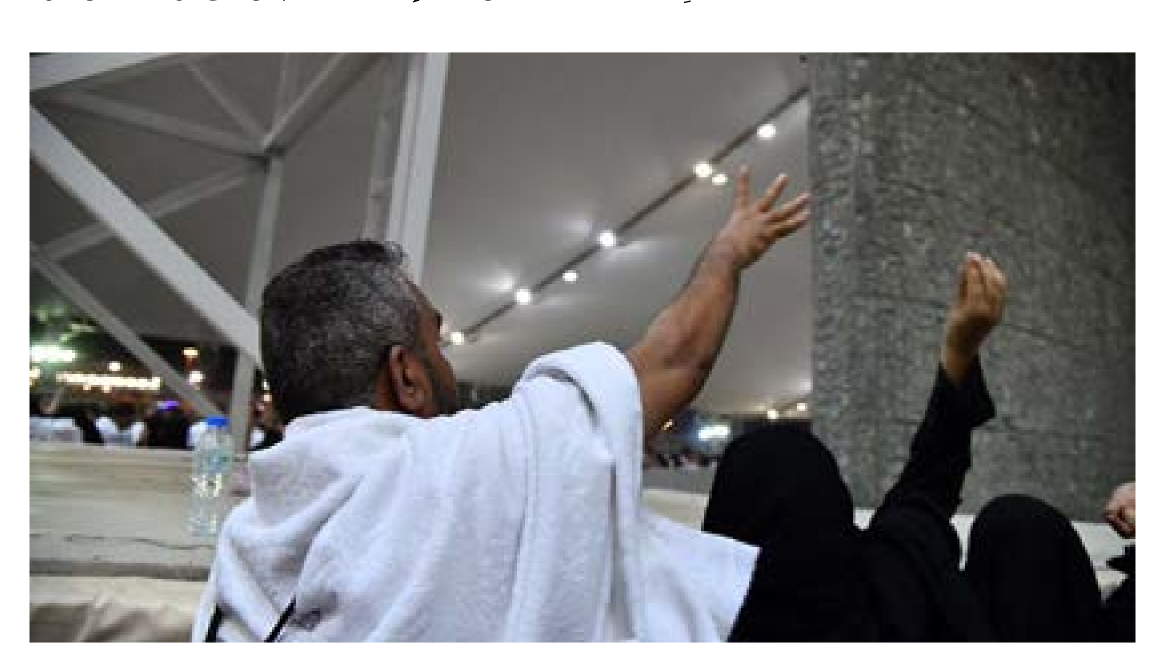
اهتم المشرع الإسلامي بالمضمون الواقعي لعقيدة التبري، والتي أراد لها أنْ تؤسس صرحاً يحقق للإسلام دوره الكبير في الحياة، في فاعليته وامتداده، وشموليته واستيعابه لكلِّ الأديان السماوية، فلم يقتصر فيه على الجانب التربوي للنفس الإنسانية، بل تعدى حتى استوعب الكثير من العبادات والطقوس والممارسات العملية، منها ما يأتي:

أوّلاً: التبري من الشيطان (رمي الجمرات)

فريضة إلهية تتجدد في كلِّ عام وتمارس فيها طقوس معيّنة، قد يجهل علتها الكثير من الحجاج ويمارسونها طبقاً لما جاء في شريعة الإسلام، نعم هناك اختلاف في بعض الممارسات تجري تبعاً لكلِّ مذهب، إلاَّ أنَّ الجميع يمارس تلك الطقوس العبادية من الإحرام والنية والتلبية والطواف والسعي ورمي الجمرات، لكنْ نريد أنْ نقف عند مفردة من مفردات إتمام الحج وهي (رمي الجمرات)، فماذا يتبادر إلى الذهن عند رمي الجمرات بهذه الحصيات السبع عند كلِّ جمرة، وماذا يعني لنا ذلك؟ وهل تحل لنا أزمة مالية أو اجتماعية أو سياسية؟

نعم إنَّها لا دخل لها في مشاكلنا الدنيوية، إنَّما تعبر عن مرحلة جهادية تعرّض لها الموحد النبيُّ إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام، هذه المرحلة الجهادية كانت أمام الشيطان الذي أخرج أبانا آدم من جنته، واليوم يتعرّض إلى نبيٍّ عبّر عنه القرآن الكريم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل/١٢٠] فأراد أنْ يثير أمامه عدّة تساؤلات موردها الشك وزوال العقيدة الحقة، فكان يوسوس له من خلال ثلاث مراحل محاولة منه أنْ يثنيه عن عزمه في ساحة الجهاد الأكبر، وكلَّما ظهر له رماه بالحجر، فإنَّ محتوى هذه الشعيرة يتضح أكثر.

فمعناها هو أنَّنا طَوال فترة عمرنا نعيش في ساحة الجهاد الأكبر ضد وساوس الشيطان، وإنْ لم نرم هذا الشيطان ونبعده عنّا فلن ننتصر أبداً، وإنْ كنا ننتظر أنْ يشملنا الله بلطفه ورحمته، كما شمل إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام بذلك وبعث إليه بالسلام وأبقى رسالته وذكراه



خالدتين في العالمين، علينا أنْ نسير على خطاه. (تفسير الأمثل:١٤/٣٧٩).

فعن الفضل بن شاذان، أنَّ الإمام الرضا عليه السلام قال: «... أُمِرَ بِالْحَجِّ قِيلَ لِعِلَّةِ الْوِفَادَةِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَطَلَبِ الزِّيَادَةِ وَالْخُرُوجِ مِنْ كُلِّ مَا اقْتَرَفَ الْعَبْدُ تَائِباً مِمَّا مَضَى مُسْتَأْنِفاً لِمَا يَسْتَقْبِلُ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَتَعَبِ الْأَبْدَانِ وَالاشْتِغَالِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَحَظْرِ الْأَنْفُسِ عَنِ اللَّذَّاتِ شَاخِصاً فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ثَابِتاً ذَلِكَ عَلَيْهِ دَائِماً مَعَ الْخُضُوعِ وَالاسْتِكَانَةِ وَالتَّذَلُّلِ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا وَمَنْ فِي الْبَرْدِ وَالْحَرِّ مِمَّنْ يَحُجُّ وَمِمَّنْ لَا يَحُجُّ مِنْ بَيْنِ تَاجِرٍ وَجَالِبٍ وَبَائِعٍ وَمُشْتَرٍ وَكَاسِبٍ وَمِسْكِينٍ وَمُكَارٍ وَفَقِيرٍ وَقَضَاءِ حَوَائِجِ أَهْلِ الْأَطْرَافِ فِي الْمَوَاضِعِ الْمُمْكِنِ لَهُمُ الاجْتِمَاعُ فِيهَا مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّفَقُّهِ وَنَقْلِ أَخْبَارِ الْأَئِمَّةِ عليهم السلام إِلَى كُلِّ صُقْعٍ وَنَاحِيَةٍ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة/١٢٢]». (عيون أخبار الرضا عليه السلام:٢/١١٩)

فهذه الشعيرة جعلها الله سبحانه وتعالى هدفاً ينشده الإنسان؛ لكي يحقق له طموحه الروحي في جميع الأصعدة، سواء كان ذلك في موسم الحج أم في حياته اليومية، كما أنّها تمثل نوعاً من التلاحم الروحي والجسدي المتصل بالله، ورمزاً للوحدة الإسلامية بين الناس، وإلغاء كلّ الفوارق الطبقية واللونية والعرقية والإقليمية، بعيداً عن المدلولات المادية المتمثلة بالحجارة، وللإيحاء بأنَّ الحياة لا بُدَّ من أنْ تتحول إلى حركة في طريق الأهداف التي يحبّها الله ويرضاها، ويريد لعباده أنْ ينطلقوا معها في رسالته.

فالتكليف يستبطن سيراً تدريجياً للإنسان بحسب كمالاته وملكاته النفسية نحو كماله وسعادته، وذلك بطي الطريق نحو الغاية والعمل فيه طوراً بعد طور حتى ينتهي إلى ما هو خير له وأبقى أو يخيب مسعاه.

هذا وقد منح الله الإنسان الاستطاعة في اختيار أعماله والقدرة على العمل أو الترك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان/٣].

وروى الكليني في الكافي بسنده عن حمران بن أعين، أنّه سأل الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن معناها فقال عليه السلام: «إِمَّا آخِذٌ فَهُوَ شَاكِرٌ وَإِمَّا تَارِكٌ فَهُوَ كَافِرٌ». (الكافي الشريف:٢/٣٨٤)

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. [البلد/٨-١٠]

وروى الكليني في الكافي أيضاً بسنده عن حمزة بن محمّد، أنّه سأل الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن معناها فقال عليه السلام: «نَجِدُ الْخَيْرَ وَالشَّر». (الكافي الشريف: ١/١٦٣)

فاستجابته لأيٍّ منهما تحدد مصيره.

وقد أوجب المشرع الإسلامي على كلِّ مسلم عندما يقرأ القرآن الكريم عليه أنْ يستعيذ من الشيطان الرجيم، فهذه الاستعاذة تعني تطهيراً للقلب بالبراءة من الشيطان ومن أعماله وإغوائه، ورفض الانقياد له والركون إليه بالاعتصام والاستجارة بالله ربِّ العالمين، وهذه العبارة رغم قصرها تمثل قمة البلاغة والشمول، وتحمل من المعاني والقيّم الساميّة والمبادئ الحكيمة ما لا مثيل له، إذا كانت نابعة من القلب بصفاء نية ونقاء طوية وسريرة وصدق العمل، والتي يمكن لنا أنْ نعبر عنها بأسارير معدن الإيمان الذي يمثل الولاء والبراء، كما أنَّ الكفر هو أيضاً ولاء وبراء معاكس لكلِّ ما تولى، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. [النساء/١١٥]

فالقرب الإلهي يعطي للإنسان حصانة فيما إذا حصلت عنده منازعة بين القوة الشهوية والقوة العقلية، فإنّه قد تتوارد عليه بعض الشهوات والنوازع الذاتية التي من شأنها خلق جوٍّ من الانشداد الدنيوي، فينسى في غمرة ذلك كلّه الكثير الكثير ممّا يؤمن به أو يدعو إليه، الأمر الذي

يجعله بحاجة إلى مزيد من التأمل والمحاسبة في الفهم الحقيقي لكثير من الطقوس والممارسات العبادية التي يمارسها يومياً.

هذا التأمل والانشداد الروحي يولد ملكة روحية تجعل من وجود الشيطان بالنسبة له غير مضرٍّ، بل يعدُّ رمزاً لتكامله الروحي؛ لأنَّ وجود مثل هذا العدو القوي يوجب تربيته وتكامله وحنكته، فالإنسان لا يبلغ رشده وكماله إلَّا إذا واجه ضداً قوياً، ونقيضاً معانداً.

ولكنْ على الإنسان أنْ يواظب على الحفاظ على هذه الملكة، وأنْ يستشعر عداوته للشيطان في فكره وعاطفته وقوله وفعله، وانتماءاته وعلاقاته العامة والخاصة.

وأنَّ عداوته للشيطان وكلِّ رموز الشرِّ مسألة لا مهادنة فيها ولا يمكن لها أنْ تتوقف عند مرحلة من مراحل الحياة، بل هي قضية متجددة في كلِّ يوم؛ ولذلك شرّع الله سبحانه وتعالى الحج في كلِّ عام ليسهم في تهيئة الأجواء التي من شأنها خلق جوٍّ للارتقاء بالجانب التأملي والعملي والروحي، فيما إذا عاش الإنسان هذه الفريضة من موقع الوعي والمسؤول، الذي يؤهله للاستمرار في أهدافه وطموحاته المستقبلية بعد عودته من موسم الحج من خلال ما عاشه من دروس وعبر ومواقف وتأمّلات، حيث الطهر، والخير، والمحبّة، والحنان، ولعلَّ هذا هو ما يريد الإسلام أنْ يبينه للحاجّ فيما ورد في الأحاديث التي توحي بأنَّ الإنسان يخرج من الحج كيوم ولدته أُمّه، وأنّه يقال له استأنف العمل من جديد، وذلك في نطاق المضمون الداخلي للحج، لا من خلال الشكل الخارجي الذي يؤديه الكثيرون بدون روح وبدون معنى، ممّن يعيشون الحج عادةً وتقليداً وسياحةً وتجارةً، فينطبق عليه ما ورد عن الزهري، قال: حججت مع أبي عبد الله عليه السلام، فإنّي معه في بعض الطريق إذ قال لي: «يَا زُهْرِيُّ مَا أَكْثَرَ الضَّجِيجَ وَأَقَلَّ الْحَجِيجَ». (الاختصاص:٣٠٣)

وإلَّا فما قيمة التلبس المادي للباس الإحرام، والنفس لم تخلع من عنقها ربقة الشيطان.

ثانياً: البراءة من النار

عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «تقول في الدعاء: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ فَاكْتُبْ لَنَا بَرَاءَتَنَا وَفِي جَهَنَّمَ فَلاَ تَجْعَلْنَا وَفِي عَذَابِكَ وَهَوَانِكَ فَلاَ تَبْتَلِنَا



وَمِنَ الضَّرِيعِ وَالزَّقُّومِ فَلاَ تُطْعِمْنَا وَمَعَ الشَّيَاطِينِ فِي النَّارِ فَلاَ تَجْمَعْنَا وَعَلَى وُجُوهِنَا فِي النَّارِ فَلاَ تَكُبَّنَا وَمِنْ ثِيَابِ النَّارِ وَسَرَابِيلِ الْقَطِرَانِ فَلاَ تُلْبِسْنَا وَمِنْ كُلِّ سُوءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَنَجِّنا...». (مصباح المتهجد:٦٢)

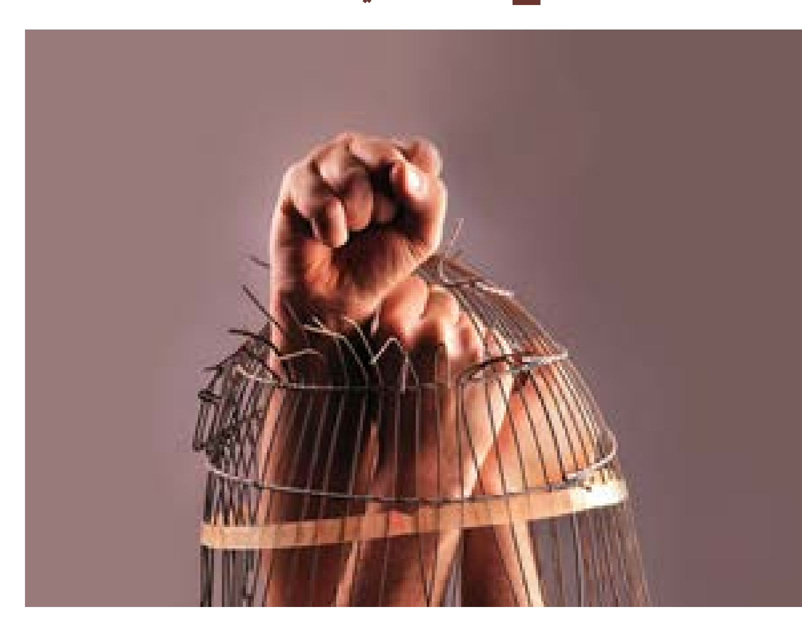
فالبراءة هي الابتعاد من الأعمال السيئة وما يوجب غضب المولى وعذابه فالإمام يسأل الله الابتعاد عن النار بإعطائه البراءة من النار أي الأمان.

وعَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله: مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الله عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ ذَكَرَ الله كَثِيراً كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ». (الكافي الشريف:٣٦٨/٤)

فذكر الله تعالى هو الابتعاد عن المعاصي والتوجه إلى الله تعالى، فيتبرأ الإنسان من النار ومن النفاق.

وعن السجاد عليه السلام قال: «يَا كَافِيَ الْمُهِمَّاتِ اكْفِنِي مَا أَهَمَّنِي وَاقْضِ دَيْنِي وَطَهِّرْ قَلْبِي وَزَكِّ عَمَلِي وَاكْتُبْ لِي بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ». (إقبال الأعمال:٢١٩/١)

ثالثاً: التبري من الظالمين



إنَّ الشريعة الإسلامية قد بيّنت حكمها القاطع بحرمة الظلم كثيره وقليله، وصغيره وكبيره، خاصّه وعامّه، وعبّرت عنه برأس الخطايا والذنوب، ومن أعظم المعاصي والكبائر، وذلك للمردود السلبي الذي يتركه الظلم نفسه على صاحبه؛ لاستئثاره بالحقوق واستبداده بالرأي الذي يؤدي به إلى نكران الشرائع، والعناد للخالق واستهتاره بالسنن والأحكام والثواب والعقاب، كما أوضحت أنَّ للظلم معنيين من حيث وقوعه، فهو خاص وعام.

قيل إنّه جاء رجل خياط بقميصين إلى الإمام الصادق عليهِ السلام قال: عندما كنت أخيط أحد القميصين، كنت أُصلي على محمد وآل محمد وعندما أخيط القميص الآخر كنت ألعن أعداء محمد وآل محمد عليهم السلام، فأي القميصين تختاره؟ فاختار الإمام الصادق عليهِ السلام القميص الذي كان الخياط عند خياطته يلعن أعداءهم عليهم السلام فقال: «إنّي أحب هذا القميص أكثر». (إمارة الولاية:٥١)

وعن النبيّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله أنّه قال لأمير المؤمنين عليٍّ عليهِ السلام: «يا علي والذي بعثني بالنبوّة واصطفاني على جميع البريّة لو أنّ عبداً عبد الله ألف عام ما قبل ذلك منه إلاّ بولايتك وولاية الأئمّة من ولدك وإنّ ولايتك لا تقبل إلَّا بالبراءة من أعدائك وأعداء الأئمّة من ولدك بذلك أخبرني جبرئيل عليهِ السلام فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر». (بحار الأنوار:٢٧/٦٣/ب١/ح٢٢)

فالتبري ممَّن ظلم محمداً وآل محمد عليهم السلام هو للتقرب إلى الله تعالى.

أ: الظلم الخاص

وهو ما يقع على الظالم نفسه، وذلك بعدم قبول الدعوة الإلهية والهداية الربانية ومقابلتها بالرفض والعناد، ممّا يؤدي إلى هلاك نفسه وإحلالها دار البوار، وتعطيل فطرته وحرمان نفسه من النفحات الإيمانية، وهذا الرفض يجعل الإنسان الظالم يخلع من رقبته ربقة الإسلام ويتحول إلى الكفر والشرك، كما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾. [هود/١٨-١٩]

فالآية فسّرت الظالمين، وبيّنت أنّهم الذين

يصدون عن الدين الحق ولا يتبعون ملة الفطرة، وبالآخرة هم كافرون.

ب: الظلم العام

وهو ما يقع على العباد بشكل مباشر أو غير مباشر بصورٍ مختلفة، كاغتصاب حقوقهم وسلب حرياتهم والتعدي على حرماتهم وإيذائهم وإرغامهم وترويعهم؛ لقبول بدعٍ في دين الله وإجبارهم على القيام بها، وفتنتهم عن دينهم في مخالفة التشريع الإلهي والسنة النبوية، وتلبيس الحق بالباطل.

وعلى ضوء هذا المفهوم يتضح مدى جدّية الشريعة الإسلامية بتأصيل موقفها المناوئ للظلم والظالمين وتوعدهم بالعذاب المهين والخلود في النار، كما وحذّرت من مغبة التهاون بمبادئ الشريعة بالركون إليهم ومساعدتهم والرضا بأفعالهم وجعلت من يفعل ذلك شريكاً لهم في ظلمهم على حدٍّ سواء، وعليه مثل أوزارهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾. [هود/١٣]

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «الْعَامِلُ بِالظُّلْمِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ وَالرَّاضِي بِهِ شُرَكَاءُ ثَلاَثَةٌ». (الخصال:١/١٠٧)

فالظالم بحديث أمير المؤمنين عليه السلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ: من كان يعلم بالظلم الواقع على الناس.

ب: من أعان الظالم في الظلم.

ج: من رضي بالظلم سواء كان ممّن يرضى أثناء وقوع الظلم أم بعد وقوعه.

وقال عليه السلام أيضاً: «الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ وَإِثْمُ الرِّضَا بِهِ». (نهج البلاغة:٤٩٩)

وسئل أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: أَيُّ ذَنْبٍ أَعْجَلُ عُقُوبَةً لِصَاحِبِهِ؟ فقال: «مَنْ ظَلَمَ مَنْ لاَ نَاصِرَ لَهُ إِلاَّ اللهُ وَجَاوَرَ النِّعْمَةَ بِالتَّقْصِيرِ وَاسْتَطَالَ بِالْبَغْيِ عَلَى الْفَقِيرِ». (نهج البلاغة:٢٨٨)

وقال عليه السلام فيمن أراد أنْ يبتعد عن الظلم: «اذْكُرْ عِنْدَ الظُّلْمِ عَدْلَ اللهِ فِيكَ، وَعِنْدَ الْقُدْرَةِ قُدْرَةَ اللهِ عَلَيْك». (كنز الفوائد:١/١٣٦)

فمناصرة الظلمة موجبة لإحلال الغضب الإلهي وذلك لاستئثارهم بالحق دون غيرهم الموجب للتسلط على حقوق الناس والإضرار بممتلكاتهم، وإشاعة المبادئ والقيم الرذيلة التي من شأنها أنْ تضرَّ بالحق العام، في إحيائها لسنن الباطل وإماتة العدل وقتل المصلحين وتقوية الظلم ونشر الفساد، وقد أبدى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الأسى والحزن على المجتمع الإسلامي إذا ولي أمره الفجار والظالمون، يقول عليه السلام: «... وَلَكِنْ أَسَفاً يَعْتَرِينِي وَحُزْناً يُخَامِرُنِي مِنْ أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً وَعِبَادَ اللهِ خَوَلاً وَالصَّالِحِينَ حَرْباً وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً». (الغارات:١/٢١١)

وقد أظهر الإمام عليه السلام حنقه على الظالمين من خلال ما يلي:

أ: الشره المالي المتجذّر في أعماق نفوس الظلمة الذي يجعلهم ينهبون أموال الأُمّة ويستنزفون إمكانياتها الاقتصادية التي تتوقف عليها حياتها العامة.

ب: حالة النقص الكامن في نفوس الظلمة، ممّا يجعلهم يسدّون هذا النقص باستعباد الأُمّة وإذلالها في جميع المجالات.

ج: محاولة تهميش المصلحين من أهل العلم ومطاردة الأخيار والغيارى الذين يناهضون الظلم ويطالبون بتحقيق العدل في البلاد.

د: تقريب النفوس التي اعتاشت على موائدهم من الفجّار والظلمّة الذين يتاجرّون بالدين ويجعلونها جسراً لتمرير مآربهم ومصالحهم الخاصّة.

إنَّ هذه البوادر من الظلم الجماعي تترتب على الحكم الجائر؛ فلذا حرمه الإسلام ودعا إلى مناهضته ومقاومته.



التوحيد في خطبة فاطمة عليها السلام

★ الشيخ فوزي السيف

ورد في خطبة السيدة فاطمة عليها السلام في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله: «الْحَمْدُ للهِ عَلى ما أنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغِ آلاءٍ أسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الْإدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لاِسْتِزادَتِها بالشُّكْرِ لاِتِّصالِها، وَاسْتَحْمَدَ إلَى الْخَلايِقِ بِإجْزالِها، وَثَنّى بِالنَّدْبِ إلى أمْثالِها، وَأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الْإخْلاصَ تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها. الْمُمْتَنِعُ مِنَ الْإبْصارِ رُؤْيِتُهُ، وَمِنَ الْألْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الْأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ. اِبْتَدَعَ الْأَشَياءَ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تَكْوينِها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْويرِها إلاّ تَثْبيتاً لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبيهاً عَلى طاعَتِهِ، وَإظْهاراً لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازاً لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيتِهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِياشَةً مِنْهُ إلى جَنَّتِهِ...».(الاحتجاج:١/٩٨)

صدقت مولاتنا فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

جاء في حديث فاطمة عليها السلام جانباً من معرفة الله وتوحيده نذكر منه ما يأتي.

هذه الفقرات التي ورد في خطبتها عليها لسلام هي من آيات انتساب هذه الخطبة العظيمة إلى سيدة النساء فاطمة صلوات الله وسلامه عليها، حيث لا تخرج هذه الكلمات وهذه المعاني إلاّ من هذا المعدن.

سوف نتعرض إلى شيء من التوضيح لهذه الكلمات وما الذي ترمي سيدة النساء إلى إفهامه للمخاطبين، ثم نشير إلى مقارنة سريعة بين الصورة للمعرفة الإلهية التي تقدمها فاطمة سيدة النساء حسبما يقدمها لسان المعصوم، والصورة الأخرى الفجة التي تقدمها سائر المدارس الأخرى الإسلامية.

الحمد مفتاحاً لذكر الله تعالى

تبدأ السيدة الصديقة سلام الله عليها أولاً بالحمد لله، «الحمد لله على ما أنعم» هذا الابتداء في الخطاب هو أسلوب إسلامي متميز لم يُعهد هذا الأسلوب في الديانات الأخرى السابقة أو في الخطابات، لكن في الحالة الإسلامية نجد الابتداء بالحمد لله حاضراً في القرآن الكريم.

فهنالك عدة سور تبتدئ بالحمد لله تعالى، أولها وأهمها سورة الفاتحة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[الحمد/١]

بدأ سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب وخلاصة القرآن كما يقول المفسرون بدايتها ومطلعها بالحمد، فكان بداية الكتاب الكريم بداية القرآن العظيم هي بداية حمدية لماذا هذا التعبير والاستخدام بالحمد؟ وماذا يعني؟

نجد أيضاً في الأدعية حضور البداية بالحمد لله عزّ وجل حضور كبير، حينما نقرأ نهج البلاغة أو الصحيفة السجادية وغيرهما من الكتب المخصصة للدعاء، نجد أنّ الأدعية التي تبدأ بالحمد أدعية كثيرة منها دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، يبدأ بقوله عليه السلام: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَيْسَ لِقَضَائِهِ دَافِعٌ وَلاَ لِعَطَائِهِ مَانِعٌ».(إقبال الأعمال:١/٣٣٩)

وهكذا في كثير من الأدعية المأثورة التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام.

كذلك في خطابات أمير المؤمنين عليه السلام نجد أنّه يبدأ بالحمد قبل الخطبة: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ وَلاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّون».(نهج البلاغة:٣٩)

فالبداية الحمدية التي هي أسلوب قرآني وروائي ورد في الدين متميّز، وقد ورد الحمد في أعظم النّصوص القرآنية والروايات والخطب لأهل البيت عليهم السلام.

كما نجده في الأدعية التي هي خطاب الإنسان لله تعالى أيضاً.

فالسيدة فاطمة تستخدم هذا الأسلوب « الحَمْدُ للهِ عَلى ما أنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ»، من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء اسداها وتمام منن والاها.

عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء اسداها وتمام منن والاها

عموم النعم قد تكون ناظرة إلى عموم المنعم عليهم، وهذا من فضل الله عزّ وجل إذ لم يجعل نعمته محصورة فيمن أطاعه وعبده، وإنّما فضل الله كان أوسع من ذلك وعطائه أعظم من هذا.

فجعل نعمته عامّة لكلّ من خلق حتى ذلك العاصي، وقد تكون ناظرة إلى نفس النّعم، إنّها نعم عامّة لاَ تختصّ بجهة دون أخرى، ليست في جانب دون جانب.

كذلك قولها عليها السلام: (سبوغ آلاء)، فالسبوغ هو الاتساع والانتشار يقال درع سابغة يعني درع واسع منتشر غير ضيّق، كذلك آلاء الله سبحانه وتعالى آلاء منتشرة.

يعني: أنّ الإنسان في حياته اليومية بحاجة إلى المأكل والمشرب والملبس والمسكن، فحياته لا تتوقف على الفواكه أو الحلوى، بل يكفيه قطعة خبز ليشبع جوعه، ومقدار من الماء ليروي ظمأه، وملبس ومسكن ليقيه من البرد والحر.

أمّا وجود هذه النعم المتوفّرة من الفواكه المتنوعة والخضروات والبقوليات، وما شابه ذلك، خلقها الله تعالى من انتشار نعمته وواسع رحمته.

فهذا من انتشار النعمة الإلهية وسبوغها في كل شيء، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ عَلى ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ﴾.[النحل/١٨]

(وتمام منن والاها)

النعمة حينما تأتي إلينا تكون تامّة لا يوجد مبتغى أو مرمى من ورائها.

الخلقة التي خلقنا الله تعالى عليها وأنعم بها علينا، في أبهى صورة وجعل شكل.

فلنا أعضاء وأجهزة متكاملة، لا يستطيع البشر صناعة هكذا أعضاء.

وقد نرى البشر يصنع الربوتات الشبيهة بالإنسان مع صنع الأعضاء لكن يستحيل جمع الجمال وكمال الأداء فيها.

فحينما خلق الله الأنف والحاجب خلقها في كمال وجمال تام لا يوجد من ورائها قول أو أي شبهة.

مع أنّ الله تعالى قادر أن يجعل شيء يؤدي المطلوب لكن ليس بهذا الشكل والجمال، مثلا يجل لنا أنف نتنفس منه لكنه ليس بهذا الشكل، لكنه عزّ وجل جعل هذا الخلق بشكل فيه الجمال والكمال والقدرة الإلهية.

فحينما نذهب إلى بيت ونقول هذا البيت جميل لكن لو كان الترتيب بهذا الشكل لكان أجمل، لكن بالنسبة إلى نعم الله عزّ وجل لا يوجد لمثل هذا الكلام أبداً.

فحينما نلاحظ أنّ السيدة الزهراء جاءت تناظر في موضوع الخلافة والإمامة ابتداءً من التعريف بالله عزّ وجل ثم التعريف بالنبي صلى الله عليه وآله، ثم التعريف بسيرة أمير المؤمنين عليه السلام ونشأة التشيّع ثم تأتي إلى البحث الخاص في الإمامة والميراث.

التعريف بالله تعالى: أشهد أن لا إله إلا الله

قالت عليها السلام: (أشهد أن لا إله إلا الله) تقرأ كلمة من نحوين بالاعتبار الإعرابي (جعل الإخلاص تأويلها وضمن القلوب موصولها وأنار في التفكر معقولها) اشهد ان لا إله الله لها جهتان:

جهة ظاهرية: هي هذه الكلمة التي إذا قالها الانسان وأتبعها بالشهادة لنبينا محمد صلى الله عليه وآله يترتب على هذه الكلمة مجموعة من الآثار، منها أنّ هذا الإنسان يكون مسلماً ويكون ماله حراماً محترماً وعرضه كذلك، وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

ولكن هنالك جانب أعمق لها، فهذا يحتاج إلى التأويل والغوص في هذه الكلمة وينتهي إلى تخليصها من الشوائب من شوائب المعرفة الخاطئة لله عز وجل، إذا أردت أن تعرف الله معرفة عميقة تحتاج إلى أن تجرد هذه المعرفة من الشوائب، كيف يعرف اليهود ربهم بشكل وكيف يعرف بعض المسلمون ربهم بشكل آخر؟ وكيف يَعرف ويُعرّف أهل البيت عليهم السلام ربهم؟ فلا بد أن تكون هذه المعرفة خالصة من الشوائب والمعارف الغير الصحيحة.

جعل الإخلاص أولياً لها وعمقاً فيها، وضمن القلوب موصولها، بالرغم من أن المعرفة الكاملة والشاملة متعسرة على الإنـسـان، لكن المعرفة الفطرية الموجودة في داخل قلب كل إنسان موجودة من الله عز وجل، قد ضمّن الله سبحانه و تعالى هذه المعرفة قلوب الناس وفطرتهم.

وقالت عليها السلام: (وأنار في التفكر معقولها) لذلك إذا أراد أحد ان يعرف ربه ينبغي ان يعمل عقله بمقاييسه، يحتاج إلى تفكر ويحتاج إلى تعقل.

المبحث العقائدي

نلاحظ كلمات السيدة سلام الله عليها، فلم يقلها غيرها ومن غير المعصومين في ذلك الزمان، هذه البحوث

العقلية الدقيقة ما كان يعرف أولئك المسلمون هذا التعريف والوصف البلاغي البديع لله تعالى (الممتنع عن الأبصار رؤيته ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته).

هنا توجد ثلاث مراحل تتحدث عنها السيدة الزهراء سلام الله عليها:

أنّ ربنا سبحانه وتعالى يمتنع على بصر كل ذي بصر أن يراه في الدنيا وفي الآخرة إذ لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار.

وذلك لأنه إذا تطبق عبارة تفكر في معقولها تقول هنالك شروط يفرضها العقل للرؤية، إذا أردنا أن نرى أي شيء هنالك شروط يفرضها العقل لرؤيته:

الشرط الأول

أن يكون في جهتنا ونكون في جهته، فلو فرضنا أنّنا نريد أن نرى الجدال الذي خلفنا لا نستطيع لأننا ليس أمام أعيننا.

الشرط الثاني

هناك توجد عدّة نظريات، فنظرية أن النور يخرج من العين باتجاه الشيء المرئي، النور الصادر من مصدر كالشمس مثلاً فهو ينعكس على شبكية العين فترى العين الأشياء.

فحينما نأتي إلى رؤية الله عزّ وجل، هل أنّ الله سبحانه وتعالى هو موجود في جهة بحيث إنّنا باستطاعتنا النظر إليه أم أنه كله أمامنا فنراه أو نرى جزء منه؟

إذا كان كله أمام أعيينا فهذا يعني أنه في جهة وقد خلت منه باقي الجهات، فحينما يقول إنسان انه يرى الله، نقول له: أين ترى الله؟ هل تراه في السماء أم في الأرض؟

لذلك هو ممتنع عن الابصار رؤيته، فهذا لا يحتاج لوجود دليل نقلي بل يكفي التفكر في معقول هذه القضية، وهذا مخالف لما تقوم عليه مدرسة كاملة من مدارس المسلمين من رؤية الله في الجنة بل بعض الفرق تقول أنه بالدنيا ممكن رؤيته.

رؤية الله تعالى مستحيلة

إنّ الآيات الواردة في القرآن الكريم صريحة وقد أكّدت مخاطبةً نبي الله موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾.

إنّ مع جل مقامه ومنزلته، فالقرآن خاطبه بعدم استطاعته لرؤية الله تعالى فكلمة (لن) مؤبّدة ولا تدركه الأبصار وهو يدركه الأبصار، ممتنعة أيضاً من الألسن صفته لا يمكن لأيّ بليغ من البلغاء أن يصف الله عزّ وجل بتمام صفته.

لأنّ صفة الشيء موقوفة على رؤيته او تصوره، فأنت إذا أردت ان تصف نخلة ينبغي أن تراها ثم تقول فيها جذع ومن أعلاها سعف فيها عذوق، أنت رأيتها والصورة ارتسمت في ذهنك فالآن أنت توصف هذا المرسوم في ذهنك إلى الخارج فإما أنك تكون قد رأيت هذه النخلة او أحدهم وصفها لك وصف دقيق، إذا ممتنع من الابصار رؤيته كيف يتم وصفه؟!

عدم علمنا بحدود الله عزّ وجل عن ذاته، سواء كان نبياً أو شخصا عادياً، لا يستطيع أن يصف البارئ عزّ وجل.

قال الإمـام الباقر عليه السلام: «كُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلَكُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ».(الوافي:١/٤٠٨)

فالصورة التي يشكّلها كل إنسان لله تعالى ليست صورة لله تعالى، لأنّ الله ممتنع عن الأوهـام كيفيةً، فنلاحظ أنّ الزهراء عليها السلام تقول هناك امتناع واستحالة، لأي إنسان كبيراً أو صغيراً، نبيّاً أو غير نبي في الدنيا أو في الآخرة أن يرى الله سبحانه وتعالى.

إنّ الرؤية الإلهية ليست رؤيـة عينية لا يمكن لأيّ شخص أن يرى الله تعالى، سواء في الدنيا أو في الآخرة، وسواء كان نبيّاً أم غيره.

إنّ فاطمة عليها السلام دعـت الأمّـة للتفكير في الشهادة لله بالوحدانية، والربوبية، ليس بالرؤية العينية، كما جاء في بعض روايـات أهل السنة، الخاطئة التي شبّهت الله تعالى وجعلت له يداً وعيناً وداراً.

وردت في الروايات المستفيضة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ الشفاعة في اليوم القيامة موكول لآل محمد عليهم السلام.

فهناك رواية الشفاعة عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه يسأل في الشفاعة ينزل من منبر النور ويذهب إلى باب الجنة ويخرّ ساجداً لله عزّ وجل مستشفعاً لأمّته فيسجد على باب الجنة لله تعالى.

أمّا الرواية التي وردت في الصحاح هي كما يلي:

يأتي النبي فيستأذن على ربي في داره - يعني لله دار والرسول يستأذن عليه في داره - فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً داخل الدار، البعض أراد أن

يفسرها إنها الجنّة.

فهذه الجنة احتوت جسم ربّها، أي شخص يكون في مكان، فهو أصغر منه.

إنّ مساحة أي مكان لأنّه يحتوي الإنسان يكون أكبر منه، فالله بحسب رواية أهل السنة أصغر من الجنة، والجنّة أكبر من ربّها، سواء كان الله في داره أو في الجنّة لأنّه موجود بداخلها وجلس سبحانه وتعالى فيها.

وهناك رواية وردت في كتبهم أنّها تقول: إنّ الله جالس على العرش، فالعرش أيضا أصبح هنا أكبر من الله، لذا علينا أن نتفكّر ونتعقّل.

فهناك روايات كثيرة عند أهل السنة تتحدث عن رؤية الله تعالى بالعين المجرّدة، وهو باطل ومستحيل.

ابتدع الاشياء لا من شيء كان قبلها

ثم تقول عليها السلام: (ابتدع الاشياء لا من شيء كان قبلها)، هذا التعبير ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك في رواية عن الامام الرضا عليه السلام.

هنا يحتاج إلى تدبّر وتدقيق في الرواية.

حينما نقول أنّ الله تعالى خلق الأشياء من العدم أو من لا شيء؛ فهذا الكلام غير صحيح ولا دقّة فيه.

إنّنا نقول الله تعالى (خلق الأشياء من العدم ومن لا شيء)، لكنّ الزهراء عليها السلام تقول (لا من شيء خلق الأشياء).

هنا فرق كبير بين الجملتين:

حينما نقول إنّ الله تعالى خلق الأشياء، يعني أنّه تعالى احتاج إلى أي شيء آخر لكي يخلق منه هذا الكون، فهنا يعني حتّى لو كان العدم أو لا شيء إنّ الله احتاج إلى العدم واللا شيء لذلك خَلَقَ الخلق.

والحال أنّ الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.[فاطر/١٥]

الله تعالى لا يمكن أن يكون إلهاً محتاجاً إلى شيء، فاحتياجه يخلق الخلق!!

لذا حينما نلاحظ دقّة التعبير الفاطمي في التوحيد الإلهي لخلق الأشياء لا من شيء، بل ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وصورها بلا احتذاء أمثلة امتثلها.

للتوضيح نقول:

إنّ فعل الإنسان رهين بثلاثة أمور:

الأمر الأول: الغاية والسبب والدليل لأيّ عمل أو خطوة.

الأمر الثاني: المادة أو ما يحتاجه الإنسان لتنفيذ العمل.

الأمـر الثالث: المثال أو النموذج الأعلى لتطبيق العملية.

إذا افترضنا أنّنا نريد بناء منزل، فالأمر الأول بحاجة إلى سبب بناء هذا المنزل.

لماذا نريد البناء؟ فالجواب: أنّنا بحاجة إلى مأوى ومسكن للعيش فيه ولتوفير الفائدة. فهذا الأمر الأوّل وهو الغاية والسبب من بناء المنزل.

أمّـا الأمـر الثاني: فهو وجـود وتوفّر المادة كالمال والمواد اللاّزمة للبناء والمهندسين وعمّال البناء.

أمّا الأمر الثالث: فهو الاحتياج إلى الخريطة أو كمّا عبّرنا عنه المثال لكي يتم بناء المنزل بناءً على الشكل الموجود والنموذج من الخرائط للمنازل.

إنّ الله تعالى حين ابتدع الخلق لا يحتاج إلى هذه الأمـور للابتداء، فهو لا ينتظر الفائدة ولا السبب من الخلق، ولا يحتاج إلى مادة والأدوات اللازمة ليخلق بها الخلق، ولا بحاجة إلى مثال ونموذج للخلق.

وهذا ما يفهم من خطبة الزهراء عليها السلام وقد أشارت إليه بهذه الأسطر، ابتدع أي أنشأ من غير سابقة ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، فالله غير محتاج ليبتدع الأشياء.

لأنّ الاحتياج هو نقص وعجز، و الله منزّه عن ذلك، بل إنّ الإنسان هو الذي يحتاج الى الخالق، فنحن ننتفع من الخلق.

الإنسان هو الذي يذهب إلى الجنة ويتنعّم بنعيمها، وهو الذي يُخلق ويُهدى ويصل إلى الكمال.

إنّ الله تعالى خَلَقَ الخَلْق تثبيتاً لحكمته وإظهارا لعظمته وتحنّنا على بريّته، فهو تعالى لا يعود إليه شيء.

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام أنّه قال في تعقيب كل فريضة: «إِلَهِي هَذِهِ صَلاَتِي صَلَّيْتُهَا لاَ لِحَاجَةٍ مِنْكَ إِلَيْهَا وَلاَ رَغْبَةٍ مِنْكَ فِيهَا إِلاَّ تَعْظِيماً وَطَاعَةً وَإِجَابَةً لَكَ إِلَى مَا أَمَرْتَنِي بِهِ إِلَهِي إِنْ كَانَ فِيهَا خَلَلٌ أَوْ نَقْصٌ مِنْ نِيَّتِهَا أَوْ قِيَامِهَا أَوْ قِرَاءَتِهَا أَوْ رُكُوعِهَا أَوْ سُجُودِهَا فَلاَ تُؤَاخِذْنِي وَتَفَضَّلْ عَلَي بِالْقَبُولِ وَالْغُفْرَانِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين».(مصباح الكفعمي:٢١)

فلله الحمد والمنة ولله الشكر والفضل وإنّ نعجز عن حمد الله وشكره والثناء عليه، نطلب منه أن يعطينا على قدر عجزنا، لأنّنا عاجزون عن الحمد، قاصرون عن الشكر.



ملحمة التوحيد في الأفعال ومسؤولية الاختيار

* الشيخ محمد السند

من خلال جواب السيدة زينب عليها السلام بقولها «ما رأيت إلّا جميلاً»، نرى أنّها قامت ببناء في باب المعرفة الإسلامية والبشرية والثقافية وفي عقلية الأُمّـة، فهناك ميز بين فعل الله وفعل المخلوق، ويجب أنْ يكون لدى الإنسان في الواقعة الواحدة، وفي الموجود الواحد قدرة تمييز، عقل وتعقل مميز، بين ما هو فعل الله وبين ما هو فعل البشر؛ إذ لو كانت امرأة عادية أو مجرد مؤمنة صالحة لكانت تقول الحمد لله على كلِّ حال وتصبر على بلاء الله، وهذا يكون جواباً من الأجوبة قدْ يعتمده الصالحون من أهل التقوى وهو الصبر على قضائه جلَّ وعلا.

في حين السيدة زينب عليها السلام لم تتخذ مثل هذهِ الأجوبة بلْ قالت «ما رأيت إلّا جميلاً»، يعني رشحة من نور القرآن من قبيل قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾[الأنفال/١٧]، فكلامها نفي ولكن على تقدير «ما رأيت»، فأين الصوفية، وأين العرفاء من كلام السيدة زينب عليها السلام، ففي حادثة عظيمة بكت لها ملائكة السماء والأرض «مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسـلام وفي جميع السماوات والأرض» (زيارة عاشوراء)، وفي كلِّ هذا تقول السيدة زينب عليها السلام «ما رأيت إلّا جميلاً»، بلْ لم تقل ما قاله سيد الشهداء عليه السلام «صبراً على قضائك يا رب، لا إله سواك يا غياث المستغيثين، ما لي رب سواك ولا معبود غيرك، صبراً على حلمك...». (أسرار الشهادة:٣/٦٨)

فهي عليها السلام لم تعتمد مثل هذهِ الرؤى والأجوبة رغم كونها حقّة ولا شبهة فيها، بلْ اعتمدت معادلة علمية من الأُسس فوق هذهِ المعادلات «ما رأيت إلّا جميلاً».

زينب عليها السلام والملائكة:

ولم تكتف السيدة زينب بهذهِ الكلمة بلْ قالت بعد ذلك:

«هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّ



وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ! ثكلتك أُمُّك يا بن مرجانة». (ارشاد المفيد: ١١٥/٢. تاريخ الطبري: ٦٥١/٤).

وهنا أخذت تستعرض الحيثية الأُخرى ببيان حقيقتها وهي الشر والشرور والنقمة، فهي عليها السلام تنظر بعينين ثاقبتين.

مع أنَّ الملائكة يوم عاشوراء ضجّت إلى الله، «فهم عند قبره شعث غبر يبكونه إلى يوم القيامة». (أمالي الصدوق: المجلس٩٢/٣٧٩).

وفي رواية أُخرى: «ونوح الجن وبكاء الملائكة الذين حوله وشدّة جزعهم». (كامل الزيارات:٩٢).

وفي رواية أُخرى عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لما كان أمر الحسين بن عليٍّ عليهما السلام ما كان ضجّت الملائكة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وقالت: يا رب يفعل هذا بالحسين صفيك وابن نبيك؟ قال: فأقام الله تعالى لهم ظل القائم عليه السلام، وقال: بهذا أنتقم له من ظالميه». (أمالي الطوسي:٣٣/٢).

وهذا ضجيجها شبيه باعتراضها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.[البقرة/٣٠]

فلو نلاحظ الفرق بين العقيلة عليها السلام وبين الملائكة، فضجيج العقيلة عليها السلام على أهل الشرور والأشرار، ومن الواضح أنَّ حدث عاشوراء ليس حدثاً سهلاً بلْ اهتزَّ منه العرش، ولا يخفى أنَّ نظام الخلقة لله، وهو نظام قائم على العدل وعلى الموازين والقواعد، والملائكة من أهل العدل والاستقامة، فما إنْ يروا سفك دماء فإنَّهم يضجّون إلى الله ويتبرمون {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء}؛ لأنَّ طبيعتهم الطهارة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فبيئتهم تلألؤ قدس وتقديس وتسبيح وهذا لا يتلاءم مع الظلمة وسفك الدماء، ولذا ضجّوا وتبرموا بشدّة؛ لأنَّه يصيبهم زلزال وهي شيء طبيعي وهذا مقتضى طهارتهم، ولو لم يكن منهم هذا الشيء وإلّا فيهم نقص، ولكن هناك كمال فوق كمال الملائكة وأكثر كمالاً منهم وهو ما تذكره الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾. [البقرة/٢٦].

الملائكة وسيد الشهداء عليه السلام:

فيا أيُّها الملائكة المقدسون كلٌّ فعل الله هو تمام الجمال وليس فيه شائبة وكدورة وتبرم. بينما الملائكة تشتكي إلى الله أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، من يسفك دم الحسين عليه السلام.

فقد وَرَدَ في روايات مستفيضة أنَّ هناك مجاميع ضخمة وكبيرة من الملائكة خاطبت الساحة الإلهية أيقتل فرخ رسول الله صلَّى الله عليه وآله، فالحسين عليه السلام نور قدْسها وكعبة نورها فكيف تتركه، فضجيجهم وتبرمهم



من شر الأشرار ولكنّ خطابهم مع الله تعالى.

بينما نشاهد العقيلة عليها السلام لا ترى في فعل الله (متميزاً عن فعل الأشرار) إلّا جميلاً، فمع الساحة الإلهية ومن جهة الفعل الإلهي لا تراه إلّا كرامة لذلك، وهذا ما قالته أمام الطاغية يزيد: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء وأصبحنا نساق كما تساق الأُسارى أنَّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة؟». (بحار الأنوار:٤٥/١٣٣).

ولو نُدقق في النظرة المعرفية يعني معرفة العقيلة زينب عليها السلام بأفعال الساحة الإلهية لم يخالجها ريبة واستنكار وتعجب كما ابتليت به الملائكة في يوم عاشوراء، فرغم كلّ هذهِ الآلام والمصائب والمحن فكلٌّ فعل الله جميل عندها، فزينب صيحة معرفية مدوية في الكون، ولا يزال وجودها محرجاً حتّى للمشروع الغربي، فقبرها وزيارتها قلعة وصيحة مدوية ضد شرور الأشرار.

النبي إبراهيم وزينب عليهما السلام:

هناك مقارنة بين مشهد النبيّ إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام ومشهد السيدة زينب عليها السلام عقيلة بني هاشم، وهو أنَّ النبيّ إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام عندما جاءته الملائكة جبرائيل وميكائيل ومن معهم لإنزال العذاب بقوم لوط عليه السلام اعترضهم أو جادلهم ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود/٧٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ [العنكبوت/٣٢]، مع أنَّ القرآن الكريم مدح النبيّ إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء/١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود/٧٥].

ولكنَّ الرسالة الإلهية تخاطب يا أيُّها النبي إبراهيم لا تلاحظ جانباً معيناً فقط كالجانب الجمالي أو الجانب الذي يحتاج إلى حلم، بلْ هناك جانب آخر ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود/٧٦]، فالله عَزَّ وَجَلَّ يبيّن لنا هذا العتاب مع نبيه وخليله إبراهيم على نبيّنا وآله عليه السلام ليس من باب الاستنقاص - والعياذ بالله - ولكن يريد أنْ يُبيّن لنا أنَّ فوق كلّ صفي اصطفاء أكبر وأكبر ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف/٧٦]، إلى أنْ يصل إلى الله تعالى.

وهنا لو نلاحظ المشهد الزينبي لم تتلكأ في التبرم من شرور الأشرار ولم توجه خطاب العتب على الساحة الإلهية - والعياذ بالله - بلْ قالت: «ما رأيتُ إلّا جميلاً» رغم هول وعظم الحدث الجلل.

وإنّ هذه الرؤية لها حصراً لا لغيرها، فهي التي قال عنها الإمام زين العابدين عليه السلام: «يَا عَمَّة... أَنْتِ بِحَمْدِ اللهِ عَالِمَةٌ غَيْرُ مُعَلَّمَةٍ فَهِمَةٌ غَيْرُ مُفَهَّمَة...». (الاحتجاج:٢/٣٠٥).



أبو طالب وجدلُ الهويّة الاعتقاديّةِ

(قِراءةٌ استكشافيّةٌ في منجزِه القولي، والفعلي)

★ فضاء ذياب

أصبحَ من مسلّماتِ المناهجِ الأدبيّةِ والفكريّةِ المُعاصرة (الأنثروبولوجيا، اللسانيات، نظريات تحليل الخطاب، نظريات النقد الثقافي) أنْ تُدرسَ وتُحللَّ آثارَ الأديبِ أو المفكرِ للتنقيبِ عن الأنساقِ الثقافيّةِ الظاهرةِ والمُضمرةِ التي يُؤمن بها، وينطلقُ منها، فتدرسُ نصوصَه ومواقفَه للكشفِ عن العقيدةِ الدينيّةِ، والمبادئ الفكريّةِ، والنوازعِ الخفيّةِ التي يَعتنقُها، ويَنسجُ من وحيها، ويتحرك في إطارها؛ لأنّ البنى الثقافيّةَ ثاويةٌ في البنى اللغويّة؛ لأنَّ الثقافةَ نسيجٌ من الأفكارِ، والمعتقداتِ، والتصوراتِ، والعاداتِ، والممارساتِ، والخبراتِ، التي تعكسُها وتحْكِيها بنيةُ اللغةِ واستعمالُها، نصوصًا، وخطاباتٍ.

هذا هو المدخلُ المنهجي، والسبيلُ الأقومُ الذي ينبغي أنْ يُسلكَ في حَسمِ النزاعِ والخِلافِ في تحديدِ الهويّةِ الاعتقاديّةِ لكفيلِ النبيّ الأعظمِ صلى الله عليه وآله، وحاميهِ أبي طالب عليه السلام، وهدفُ هذا المقالِ هو الإلفاتُ إلى هذا المنهجِ وتركيزِهِ في حسمِ الجَدل في هذا الموضوع، وليس العرضَ التفصيليّ لأدلّةِ الطرفينِ المُختلفينِ فيه، فيُعملُ وفقَ رؤيةِ هذا المَدخلِ المنهجي على قراءةِ المُنجز القولي، أو المأثور القولي عنه، واستخراجِ الأنساقِ الثقافيّةِ، والرؤى الفكريّةِ، والمنطلقاتِ العقيديّة فيه، وبيانِ تمظهراتِها في السّلوكِ، وتجلّياتِها في المواقفِ، لاسيّما المقرونةِ بالتضحياتِ، والبحثِ عن المرجعياتِ، والغاياتِ، والمقاصد، فليسَ هناك غيرُ قولِ الإنسانِ وفعلهِ ما يدلُّ على أفكارِهِ، ومعتقداتِهِ، ولا سبيلَ لمعرفتِهما غيرهما.

أوّلاً: قِراءةٌ في المُنجَزِ القَوْلِي لِأبي طالِب عليه السلام

يُبرزُ الإنسانُ أفكارَهُ، ومشاعرَهُ، ومعتقداتِهِ عبرَ جملِهِ وعباراتِه، ومواقفِهِ وسلوكياتِهِ، من هنا نسلكُ الطريقَ الأوّلَ، لنستكشفَ معالمَ الهويّةِ

الاعتقاديّةِ لأبي طالبٍ، عبرَ معاينةِ مأثورهِ القولي شِـعـرًا، ونـثـرًا، فقد أولـتِ الـدراسـاتُ والمناهجُ اللسانيّةُ، والنقديّةُ الحديثةُ عنايةً بالغةً في تشريحِ النصوص، وتفكيكِها، وتحليلِها، للوصولِ إلى البنيةِ الفكريّةِ لمنتجِها، والمعنى المُنجَزِ فعليًّا من خلالِ دلالاتِ البنيةِ اللغويّة فيها، وسياقاتِ استعمالها، و(الدراسات الثقافيّةُ صارتْ تأخذُ النصّ من حيث ما يتحقّقُ فيه، وما يتكشّفُ عنه من أنظمةٍ ثقافيّةٍ). (النقد الثقافي الغذامي:١٧)

انطلاقًا ممّا تقدّم، واستنادًا إلى أنّ الاستعمالَ اللغويّ هو موقفٌ، وفعلٌ، وإنجازٌ، وليس وصفًا، وتعبيرًا، وإخـبـارًا فقط، كما قـرّرتِ اللسانياتُ التّداوليّةُ المعاصرةُ (نظرية الفعل الكلامي، هشام عبد الله الخليفة:٤٠-٤١)، (الفعل الكلامي)، نعرضُ بعضَ المواقفِ اللغويّةِ، والأفعالِ الانجازيّةِ، وما تكشفُ عنهُ من مبادئ وقناعاتٍ عقائديّةٍ، في مقاطعَ معدودةٍ مُجتزئَة من قصائدَ شعريّةٍ قالها أبو طالبٍ في مواقفَ مختلفةٍ:

النموذج الأول:

كذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ نَترك مكّة
ونظعَنَ إلاَّ أمرُكُم في بَلابلِ
كَذَبْتُم وبيتِ اللهِ نُبَزى محمدا
ولمّا نُـطاعِنُ دونَهُ ونُناضِلِ
ونُسْلِمَه حتى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ
ونَذْهُلَ عن أبنائِنا والحَلائلِ
أقيمُ على نصرِ النبيّ محمّدٍ
أقاتلُ عنهُ بالقَنا والقنابلِ
فمَنْ مثلُهُ في النّاسِ أيُّ مؤمَّلٍ
إذا قاسَهُ الحكّامُ عندَ التَّفاضُلِ
حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غيرُ طائشٍ
يُوالي إلهًا ليسَ عنهُ بغافلِ
فأيّدَه ربُّ العبّادِ بنصرهِ
وأظهرَ دَينًا حقُّه غيرُ ناصلِ
(ديوان أبو طالب:٧٤-٨٥)

في هذه الأبياتِ أنجزَ أبو طالبٍ أفعالَ القَسَمِ، التوكيدِ، والالتزامِ، بنصرةِ النبي الأعظم صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ، حتّى بذل النفسِ دونهُ، ليس تعصبًا لهُ، لكن إيمانًا بهِ، وبدينِهِ كما علّل في الأبياتِ الأخيرةِ في الأبياتِ الثلاثةِ الأخيرةِ.

النموذج الثاني:

وَاللهِ لَن يَصِلوا إِلَيكَ بِجَمعِهِم
حَتّى أُوَسَّدَ في التُرابِ دَفينا
فَاِصدَع بِأَمرِكَ ما عَلَيكَ غَضاضَةٌ
وَاِبشِر بِذاكَ وَقَرَّ مِنهُ عُيونا
وَدَعَوتَني وَزَعَمتَ أَنَّكَ ناصِحٌ
وَلَقَد صَدَقتَ وَكُنتَ ثَمَّ أَمينا
وَعَرَضتَ ديناً قَد عَلِمتُ بِأَنَّهُ
مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دينا
(ديوان أبو طالب:١٨٩)

في هذهِ المقاطعِ يعيد ينجزُ الأفعالَ المتقدّمةَ نفسها، والمضامين نفسها، مع زيادةِ فعل الاعترافِ بكونِ ديـنِ النبيّ من خير الأديـانِ، وهو مطابقٌ للعقيدةِ الإسلاميّةِ بكونِ الإسـلام خيرَ الأديـان وخاتمها.

النموذج الثالث:

يا شاهدَ الخلقِ عليّ فاشهدِ
إني على دينِ النبيّ محمدِ
ألا أن خيرَ الناسِ أمّاً ووالداً
إذا عُدَّ ساداتُ البريةِ أحمدُ
نبيُّ الإلهِ والكريمُ بأصلهِ
وأخلاقِه وهو الرشيدُ المؤيّدُ
(ديوان أبو طالب:٩٠)

وهنا فعل تصريحي لا يقبلُ التأويلَ، قائمٌ على الإشهاد مبالغةً في اليقينِ، والجزمِ، والتوكيدِ، بكونِه على دينِ النبيّ محمّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ.

النموذج الرابع:

ألا أبلغا عني على ذاتِ بينها
لؤياً وخُصّا من لؤيّ بني كعب
ألمْ تعلموا إنّا وجدنا محمّداً
رسولاً كموسى خُطّ في أولِ الكُتبِ
(ديوان أبو طالب:١٦٠)

في هذينِ البيتينِ لا يكتفي بإبرازِ إيمانِهِ المؤكّدِ بنبوةِ محمّدٍ صلّى الله عليهِ وآلِـهِ، بل يطلب أنْ تُبلَّغَ عنه هذهِ الحقيقةُ، والعقيدةُ، مشبّهًا محمدًا بموسى، ذاكرًا البشارةَ به في أولِّ الكُتبِ السماويّةِ.

حواريّة تاريخيّة:



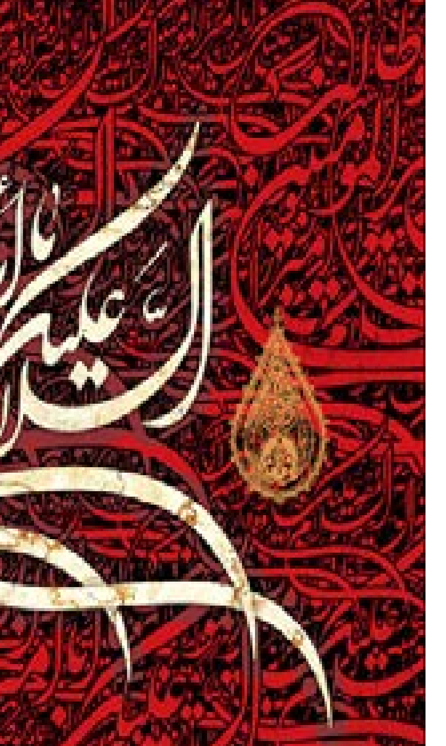
نقلُ هذه الحادثةَ والحوارَ التاريخي بين قريشٍ وأبي طالبِ من جهةٍ، وبينَ أبي طالبٍ وابن أخيهِ (مُحمّد)، من جهةٍ ثانيةٍ، وهو ممّا يُعزّزُ موقفَ أبي طالبٍ وعقيدتِهِ، مع الإشارةِ إلى مواضعِ التزويرِ فيها: (ثمّ إنّهُم مَشُوا إلى أبي طالبٍ مرّةً أخرى، فقالوا له: يا أبا طالبٍ، إنّ لكَ سنّا، وشرفًا، ومنزلةً فينا، وإنّا قد استنْهَيْناكَ من ابنِ أخيكَ، فلمْ تنهه عنّا، وإنّا واللّهِ لا نصبرُ على هذا... حتّى تكفَّهُ عنّا، أو ننازلَهُ وإيّاكَ في ذلك، حتّى يهلكَ أحدُ الفريقينِ. وبعثَ أبو طالبٍ إلى رسولِ الله - صلّى الله عليهِ وآله - فقالَ لهُ: يا ابنَ أخي، إنّ قومَكَ قد جاءُوني، فَقالُوا لِي: كذا، وكذا، فأبقِ عَلَيّ، وعلى نفسِك، ولا تُحمّلني من الأمرِ ما لا أطيقُ...، فقالَ رسولُ الله صلّى الله عليهِ]وآلِـهِ[: يا عَمّ، واللّهِ لو وضعُوا الشمسَ في يَميني، والقمرَ في يَساري على أنْ أتركَ هذا الأمرَ حتّى يظهرَهُ اللّهُ، أو أهلكَ فيه، ما تركتهُ، ثم استعبرَ رسولُ الله - صلّى الله عليهِ]وآلِهِ[وسلّمَ - فبكى، ثم قامَ. فنادَاهُ أبو طالبٍ فقالَ: أقبلْ يا ابنَ أخي، فأقبلَ عليهِ رسولُ الله صلّى الله عليه]وآلِهِ[وسلّم - فقالَ: اذهبْ يا ابنَ أخي، فقلْ ما أحببتَ، فو الله لا أُسلمكَ لشيءٍ أبدًا. ثم أعلنَ أبو طالبٍ على الملأِ كلمتَهُ المعروفةَ: والله ما كذَبَنا ابنُ أخي) . (السير والمغازي:١٤٧-١٥٤. سيرة ابن هشام: ٢٨٢/١-٢٨٥. تاريخ الطبري: ٣٢٢/٢-٣٢)

ما زالَ أبو طالبٍ في حوارهِ المنثورِ، يؤكّدُ نصرتَهُ، وتصديقَهُ لابن أخيهِ بالقسمِ المُغلظِ، كما كان في شعرهِ، حتّى يمكنَ عدّ القسمَ لازمةً أسلوبيّةً لكلامِهِ في هذا الموضوعِ، ممّا يدلُّ بوضوحٍ على عمقِ إيمانِهِ برسالةِ ابنِ أخيهِ. وللتشويشِ على هذه الحقيقةِ الناصعةِ، تمّ دسُّ عباراتٍ في هذه الحواريّةِ لتؤدّي وظيفتَها في رسمِ الصورةِ المشوّهةِ لعقيدةِ أبي طالبٍ، والنيلِ من صلابتِهِ وشجاعتِهِ، لكنّها جاءت متهافتةً، ففي بداية الحوارِ أظهرتِ العباراتُ المدسوسةُ أبا طالبٍ مُتزلزلًا، خائفًا على نفسِهِ (فأبقِ عَلَيّ، وعلى نفسِك، ولا تُحمّلني من الأمرِ ما لا أطيقُ.(وهذا يناقضُ نهايةَ الحوارِ الذي قالَ فيه أبو طالبٍ: (اذهبْ يا ابنَ أخي، فقلْ ما أحببتَ، فو اللّهِ لا أُسلمكَ لشيءٍ أبدًا)! وممّا يدلّ على دسّ العبارةِ الأولى أيضًا أنّها تخالفُ ما كان يُعلنهُ بتأكيدٍ وقسمٍ على نصرةِ ابنِ أخيهِ مهمّا كانت النتيجةُ، كما نقلنا ذلك في النماذجِ الشعريّةِ المُتقدّمةِ، ولو كان أبو طالبٍ غير مؤمنٍ بنبوةِ ابن أخيهِ، وخائفًا على نفسِهِ، لطلب منهُ أنْ يغادرَ مكّةَ على أقلّ التقادير، لا أنْ يبادرَ إلى حمايتِهِ ونصرتِهِ.

ثانياً: تمظهراتُ القولِ في العمل

المواقفُ والسلوكُ التي تؤكّدُ الافصاحاتِ القوليّةَ، وتبرزُ المضمراتِ الثقافيّةَ، شواهدُ صدقٍ، ودلائلُ حقٍّ على تطابقِ العملِ مع القولِ، والإيمانِ مع البيانِ، لذا ستكون هي الطريقُ الثاني الذي نسلُكهُ لاستكشافِ الهويّةِ الاعتقاديّةِ لأبي طالب.

وفي هذا الجانبِ تنقلُ كُتبُ التاريخِ والتراجمِ بإجماعٍ، وتواترٍ أنّ أبا طالبٍ عليه السلام قد جسّدَ أقوالَهُ، سيرةً وأفعالًا، في كفالتِهِ للنبيّ الأكرمِ صلّى الله عليهِ وآلِـهِ، وحمايتِهِ، وفدائهِ لهُ بأولادِهِ (الطبقات الكبرى لابن سعد:١١٩/١. سيرة ابن هشام:١٩٠/١)، وتقديمِهِ بالرعايةِ عليهم(تاريخ الطبري:١٦٦/٢)، فكان أبو طالبٍ لابن أخيهِ كما ينقلُ ابنُ إسحاقٍ: (عَضدًا، وحِرْزًا في أمرِهِ، ومَنعَةً، وناصرًا على قومِهِ). (سيرة ابن هشام: ٥٧/٢. تاريخ الطبري: ٣٤٣/٢-٣٤٤)



وتحمُّلِه المجاعةِ الشديدةِ، وتعريضِ نفسِهِ، وأهلِهِ للهلاكِ جوعًا، بسببِ الحصارِ القاسي الذي فرضَتْهُ قريشٌ عليه، وعلى عشيرتِهِ في شِعبِ أبي طالبٍ، لاحتضانِهم النبيّ الأعظمِ صلّى الله عليهِ وآلِـهِ. (السير والمغازي:١٥٦-١٥٩. سيرة ابن هشام:٣٧٥/١-٣٧٩. تاريخ الطبري: ٣٣٦/٢)

ثالثاً: تفسيراتُ نصرةِ أبي طالبٍ عليه السلام للنبي صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ

هل يفعلُ إنسانٌ ما فعلَهُ أبو طالبٍ من دونِ عقيدةٍ؟! بل هل يُقدمُ على تلك التضحياتِ الكبيرةِ، والأخطارِ العظيمةِ، لحمايةِ مَن جاءَ ينسفُ عقيدتَه، وعقيدةَ قومِهِ، ويجتثّها؟! وهل يمكنُ أنْ يُفترَضَ

سببٌ مقبولٌ، أو دافعٌ معقولٌ لذلك غيرُ إيمانِهِ العميقِ بنبوّةِ ابنِ أخيهِ؟!

لا تقلْ إنّهُ كان يبحثُ عن مصلحةٍ دنيويّةٍ؛ لأنّهُ لم يحصدْ غيرَ الضررِ الدنيويّ الشديد، ولا أنّه كان متساهلًا في عقيدتِهِ، وغيرَ متحمّسٍ لها؛ لأنّه كما يصورّونَ كان شديدَ التمسّكِ بعقيدةِ قومِهِ في الشّركِ، وقد رفضَ الإسلامَ حتّى في آخر لحظاتِهِ، برغمِ دفاعهِ عن النبيّ، واعترافِهِ بأنّه نبيٌّ مبعوثٌ من اللهِ، ومرشدٌ إلى الحقّ، وأعداؤهُ من قريشٍ على ضلالٍ، وباطلٍ كما يصرّحُ في قصيدته! هل لاحظتَ حجمَ التناقض؟!

رابعاً: مُقاربةٌ قرآنيّةٌ: آزر وإبراهيم، وأبو طالب ومحمد صلى الله عليه وآله

هـدّدَ آزرُ نبيَّ اللهِ إبراهيمَ - وهو ابنُ أخيه - بالرّجمِ، والطّردِ الأبديّ، لما جاءهُ يدعوهُ إلى عبادةِ الله، ونبذِ عبادةِ الأوثانِ؛ لأنّ آزرَ كان متمسّكًا بعبادةِ الأوثـانِ، فجاء في سورة مريم عن لسان آزر: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}.[مريم/٤٦]

فلمْ يقدّمْ آزرُ على عقيدتِه الوثنيّة، قرابتَهُ لإبراهيمَ الذي جاءَ مسفّهًا لها، ولمْ يقتصرْ على عدمِ الإيمانِ بهِ، وعدمِ حمايتِهِ، بل هدّدَهُ بالرجمِ، والنفي الأبديّ، وهذا منبّهٌ قويٌّ على أنّ أبا طالب لو كانَ مُشركًا - حاشاه - وشديدَ التمسكِ بعبادةِ أوثـانِ قريشٍ كما ينقلونَ، لَسلكَ مع ابنِ أخيهِ محمّدٍ، سلوكَ آزر مع إبراهيم، بل لاكْتفى بعدمِ النصرةِ على أقلِ تقدير. فكيفَ، وقد فداهُ بنفسِهِ وأولادِهِ، وعشيرتِهِ، وتحملَّ لأجل ذلكَ، ومن معَهُ ألمَ الجوعِ المبرحِ لمدةِ ثلاثِ سنين، بسببِ حصارِ قريش القاسي.

الخلاصةُ

مهما بحثتَ - وأنت تعتقدُ أنّ أبا طالبٍ عليه السلام ماتَ مشركًا - عن سببٍ معقولٍ لما فعلَهُ مع ابنِ أخيهِ، فإنّك لن تجدَهُ، إلّا على القولِ بإيمانِهِ؛ لأنّه إمّا أنْ يكونَ فَعلَ ذلكَ لمصلحةٍ دنيويّة، وهي مفقودةٌ كما هو واضحٌ، بل المتحققُ ضدُّها، وهو الضررُ الشديدُ، وإمّا لمصلحةٍ أخرويّة، وهي تقتضي في رتبةٍ سابقةٍ إيمانَه، وهو المُتعينُ، والموافقُ لأشعارِهِ، ومواقفِهِ، ولقولِ أولادِهِ، وأحفادِه، وأهل البيتِ أدرى بالّذي فيهِ كما يُقال.

وعليه لا قيمةَ للرواياتِ المدسوسةِ على أبي طالب عليه السلام؛ لأنّها تخالفُ السيرةَ العقلائيّة بعامةٍ، وسيرتَهُ العمليّةَ بخاصةٍ، والمأثورَ من أشـعـارِهِ، وأقـوالـه. وهـي تأتي في سياق الحربِ الأمويّةِ على بني هاشم، لتكونَ نتيجتُها أنَّ الأمويَّ زعيمَ الطلقاء أبا سفيان، أسلمَ، وحَسُنَ إسلامُه، وأنَّ الهاشميَّ والـدَ عليّ، وكفيلَ النبيّ وحاميهِ بنفسِه، وأولادِه، ماتَ كافرًا، {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى}.[النجم/٢٢]

يكفيكَ منبّهًا لوجودِ عمليّات دسّ، وتزويرٍ، وتشويهٍ، موجّهةٍ لكفيلِ النبيّ صلى الله عليه وآله، وحاميهِ، أنّهم جعلوا سببَ نزولِ قولِهِ تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْـحَـابُ الْـجَـحِـيـمِ}.[الـتـوبـة/١١٣] هـو محاولةُ استغفارِ النبيّ الأكرم صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ، لعمّهِ أبي طالبٍ عليه السلام بعد أنْ حضرَ عندهُ قبيل وفاتِهِ، فطلب منهُ أنْ يتلفّظَ بالشهادتينِ فأبى حتّى قضى.(تفسير الطبري:١١/٤١. تفسير ابن كثير: ٢/٣٩٣). وهذه الشبهة أيضاً مردودة لأنّ سورةَ التوبة من آواخر السور التي نزلت في المدينةِ، بعد مرور أكثر من عقْدَينِ على وفـاةِ أبو طالب عليه السلام!(ينظر:الكشاف:٢/٢١٧)

ومَثَلُ أبي طالبٍ عليه السلام في قومِهِ كَمَثَلِ مؤمنِ آلِ فِرعون: {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ}.[غافر/٣٨]

مع الالتفات إلى أنّ مؤمنَ آلِ فرعونَ ثبتَ لهُ الإيـمـانُ حتّى مع الكتمانِ، وعـدمِ الإعـلانِ، ولم ينقلِ القرآنُ تصريحَهُ بالإيمانِ بما جاءَ بهِ مُوسى على نبيّنا وآله وعليه السلام ويكادُ يُطابقُ منطقُهُ منطقَ أبي طالبٍ عليه السلام في دفاعِهِ عن النبي الأكرمِ صلّى الله عليهِ وآلِهِ.



الأُصول العامة للفهم الرمزي في روايات الظهور الحلقة الثانية

*عبد الرحمن العقيلي

الأُصول العامة للفهم الرمزي للأخبار

------ الأصل الأول

أن لا يكون الخبر (الآية القرآنية والحديث المروي) قابلاً للحمل على الظاهر في نفسه:

وهذا الأصل هو الحلقة الأهم في السلسلة وهو من القوانين التي لم توضع في أُصول لفظية محددة لكونه ظاهراً بنفسه ولا يحتاج لاستدلالٍ أصلاً!! فاللغة وُجدت حتى تكون علاقة لفظية بين شخص من جهة وآخرين من جهة أُخرى ولو كان الأصل في اللغة أن تكون مجازاً وألغازاً لما كان لها معنى ولسعى البشر لاستبدالها بكلام يكون مُتّسقاً مع كونهم عقلاء يتكلمون لهدف!

نعم يكون الكلام مجازاً أو بالتلميح في مواضع يكون ذلك مطلوباً لهدف معيّن يستسيغه العقلاء ويتواضع عليه أهل اللغة وأهل العلم ويكون مدلولاً بذلك من تلكم الأهداف: عدم فهم الناس للكلام لو خرج من صاحبه على سبيل الحقيقة يقول النبيُّ صلَّى الله عليه وآله: «إنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِم». (المحاسن للبرقي:١/١٩٥)

ولنشبّه المسألة بمن يريد أنْ يضع كيلوغراماً من السكر المكعب (القند) المتكون من مئة قطعة في إناء لا يسع إلَّا لسبعين قطعة فماذا نعمل؟!



طبعاً سنحتال لذلك بسحق السكّر وبذلك يكون الإناء متسعاً للكيلو غرام وأكثر! وهذا ما يفعله كل عاقل أمام شخص لا يستطيع أنْ يفهم كلامه لكون كلامه أعلى من مستوى الفهم، فهو يضعه في قالب قابل للاحتواء وهذا ما يفعله الكبار عادة مع الأطفال، إذ إنَّهم يتصابون لهم حتى لا يحس الطفل بالاستيحاش وبالتالي نستطيع أن نَفهم الطفل أكثر ونُفْهِمه أكثر.

وكمثال على ذلك: قول النبيّ صلَّى الله عليه وآله: «إِنَّهَا أَمَارَةٌ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ أَوْشَكَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ فَلاَ يَرْجَعَ حَتَّى تُحَدِّثُهُ نَعْلاَهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلَهُ بَعْدَهُ». (بحار الأنوار للمجلسي:١٩/١٢٩)

وفي لفظ آخر: «حَتَّى تُحَدِّثُهُ نَعْلاَهُ وَسُوطُهُ». (مسند أحمد:٢/٣٠٦).

فالنبيُّ صلَّى الله عليه وآله يريد أنْ يتكلم عن التطوّر التقني الهائل قبل الساعة فيشير إلى أجهزة اتصال حديثة قد تكون محمولة على الأحذية أو أنَّها تحمل في اليد.

ووصف النبيّ صلَّى الله عليه وآله يشبه إلى حدٍّ معين ما نراه اليوم من أشكال أجهزة (اللاسلكي) فهي تشبه العصا مع وجود الجزء القابل للتمدد في الجهاز وقد رأينا كيف أنَّ أجهزة اتصال صغيرة صارت تحمل على الكتف والذراع والفخذ فلا مانع من أنْ نرى يوماً تكون فيه الأحذية قابلة لحمل أجهزة اتصال معينة.

وموضع البحث هنا قوله صلَّى الله عليه وآله أنَّ النعلين والسوط تتحدث فالنعلان والسوط من الجمادات ولا يمكن أنْ تتحدث الجمادات بنفسها فهنا لا يمكن أنْ ننتظر أنْ تتكلم الجمادات قبل قيام الساعة؛ لذا فيمكن التفكير في حمل الكلام على المنحى التقريبي أو الرمزي وبخلاف هذا الفهم يبقى الحديث من دون معنى لذلك وبعدما لم نستطع أنْ نفهم الحديث بشكله الظاهر نلجأ إلى الفهم الرمزي للألفاظ فـ(تكلم النعلين) أو (السوط) هو عبارة عن رمز يشير إلى أجهزة اتصال تشبه هذا الأشياء وهذا وقع فعلاً.

عن النبيّ صلَّى الله عليه وآله أنّه قال: «كيف بكم إذا ابتليتم بعبد قد سخرت له أنهار الأرض وثمارها، فمن اتبعه أطعمه وأكفره، ومن عصاه حرمه ومنعه. إنَّ الله تعالى يعصم المؤمنين يومئذ بما عصم به الملائكة من التسبيح. إنَّ بين عينيه كافر يقرؤه كلُّ مؤمن كاتب وغير كاتب». (معجم أحاديث الإمام المهدي للكوراني:٢/٨٣).

فمثل هذا الحديث فيه عدة مشاكل معضلة! أهمها أنَّ الطاعة لهذا (العبد) هي كفر فإذا كان (هذا العبد) كافراً فكيف تُسخّر له أنهار الأرض وثمارها تسخيراً تكوينياً؟! وهذا الحديث ورد بألفاظ أُخرى وفيها أنّه (الدجال) كما ورد (الدجال يخوض البحار إلى ركبتيه، ويتناول السحاب ويسبق الشمس إلى مغربها وفي جبهته قرن يخرص منه الحيات، وقد صور في جسده السلاح كله حتى ذكر السيف والرمح والدرق. قال قلت: وما الدرق؟ قال: الترس). (معجم أحاديث الإمام المهدي للكوراني:٢/٨٤).

وورد في حديث آخر «إنَّ الدجال خارج وهو أعور عين الشمال، عليها ظفرة غليظة وإنَّه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى يقول للناس



أنا ربكم، فمن قال أنت ربي فقد فُتن، ومن قال ربي الله حتى يموت فقد عُصم من فتنته ولا فتنة بعده ولا عذاب، فيلبث في الأرض ما شاء الله، ثم يجيء عيسى ابن مريم على نبيّنا وآله وعليهما السلام من قبل المغرب مصدقاً بمحمد صلَّى الله عليه -وآله- وسلم وعلى ملَّته، فيقتل الدجال ثم إنَّما هو قيام الساعة». (معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام للكوراني:٢/٨٥).

لهذا فلو صدق الحديث على ظاهره لبطل الثواب والعقاب لكون اللطف الإلهي يتيح للإنسان الفرق بين الكاذب والصادق في مدعّي الرسالة والإمامة والوصل بالله عموماً ولو مكّن الله سبحانه للكاذب أنْ يحيي الموتى وأنْ يفعل ما تفعله الأنبياء والأئمة فكيف يعذب من يتبعونه بعد ذلك وما تقام الحجة إلَّا بهذه المعاجز؟!!

لذا فالمقصود بكلِّ هذه الأخبار لا يمكن أنْ يكون إنساناً مُشخّصاً واضحاً، بل هو شيء آخر، فالحديث يتكلم في الحقيقة عن أوجه حضارة اسمها (الدجال) وهذه الحضارة تملك من المخترعات التي بعضها يطير في السحاب وبعضه يمخر عباب البحار وبعضه يقدم الثمار بكميات كبيرة... إلخ، والذي يقف بوجه هذه الحضارة تحكم عليه بالجوع والموت ومن يصبح تابعاً لها يأكل من خيراتها الخادعة والدنيوية؛ لذا فالحق في هذا الحديث ألَّا يُحمل على ظاهره لكونه لا يمكن أنْ نفعل ذلك؛ لذا نلجأ إلى طريقة ثانية لفهمه وهي طريقة الفهم الرمزي بعدما لم نستطع أنْ نحمل الدجال على ظاهر هذا اللفظ.

عن النبيّ صلَّى الله عليه وآله أنَّه قال: «لتقصدنكم نار هي اليوم خامدة في وادٍ يقال له برهوت، تغشى الناس، فيها عذاب أليم، تأكل الأنفس والأموال تدور الدنيا كلّها في ثمانية أيام، تطير طير الريح والسحاب، حرّها (في الليل) أشدّ من حرّها بالنهار، ولها ما بين السماء والأرض دوي كدويّ الرعد القاصف، هي من رؤوس الخلائق أدنى من العرش»، قيل: يا رسول! أسليمة هي يومئذ على المؤمنين والمؤمنات؟ قال: «وأين المؤمنون والمؤمنات يومئذ؟ هم شر من الحمر يتسافدون كما تتسافد البهائم وليس فيهم رجل يقول: مه مه». (كنز العمال للهندي:١٤/٣٤٥).

وروى الشيخ الصدوق: (عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد قال: اطلع علينا رسول الله صلَّى الله عليه وآله من غرفة له ونحن نتذاكر الساعة، قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله: «لا تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات: الدجال، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض، ويأجوج

ومأجوج، وثلاث خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، تنزل معهم إذا نزلوا وتقيل معهم إذا قالوا»). (الخصال:٤٣١).

وهذه النار التي تخرج من قعر عدن ذكرت في أخبار مبسوطة منها (عن حذيفة قال: إنّ للدابة ثلاث خرجات تخرج في بعض البوادي ثم تكمن وخرجة في بعض القرى حتى تذكر فيهريق الأمراء فيها الدماء ثم تكمن... فتخرج عليهم الدابة فتجلو وجوههم مثل الكوكب الدري ثم تنطلق فلا يدركها طالب ولا يفوتها هارب... قال وما الناس يومئذ يا حذيفة؟ قال: جيران في الرباع شركاء الأموال أصحاب في الأسفار). (الملاحم والفتن لابن طاووس:٩٢).

وهي واضحة في أن هذه (الدابة) وهي القطار هنا لها ثلاث (خرجات) تكمن قبل كلٍّ منها أي أنَّ لها ثلاث محطات انتظار وفي المحطة الثانية (يهريق الأمراء فيها الدماء) أي يضيف القائمون على شأنها الوقود وهو دماؤها ثم تنطلق إلى الشام كما في حديث آخر (فلا يدركها طالب ولا يفوتها هارب) أي لا تتوقف بعدها إلى المحطة الأخيرة وقوله (أصحاب في الأسفار) إشارة لطيفة لهذه (الدابة) لكونها من وسائل السفر.

وجاء قريب من ذلك في ملاحم ابن طاووس (وذكر حديث آخر بإسناده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يوشك أنْ تخرج نار من (حبس سيل) تضيء بها أعناق الإبل ببُصْرى، وتسير سير بطء الإبل، تقيم بالليل وتسير بالنهار حتى يقول الناس غدت النار فاغدوا، وراحت النار فروحوا، من أدركته أكلته». (الملاحم والفتن:٣٠٩).

فهذا القطار (النار) محطة انتظاره في منطقة تُسمّى (حبس السيل) وهو يسير (كما تسير الإبل البطيئة) أي سيراً متزناً لا كما تسير الإبل السريعة وقوله (تقيم بالليل وتسير بالنهار) إنَّ القطار كان يتوقف في الليل ويسير بالنهار في بداية عمله في منطقة الحجاز، وقوله (حتى يقول الناس غدت النار فاغدوا، وراحت النار فروحوا) إشارة لطيفة إلى انتظار الناس القطار فإذا أتى القطار أتى الناس وإذا تحرك تفرق الناس وقوله (من أدركته أكلته) أي أنَّ من توقف له القطار فهو يدخل فيه ليسافر وسمي أكلاً لأنَّ الإنسان عند الأكل يدخل الطعام إلى جوفه وهو لطيف ووقع هذا الحديث بتفاوت عند أبي داود الطيالسي في مسنده (نار من رومان أو ركوبة يضيء منها أعناق الإبل ببصرى). (معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام للكوراني:٢/٢٠٣).

وبلفظ آخر (تخرج نار من اليمن من جبل الوراق تضيء لها أعناق الإبل وهي تبرك ببصرى كضوء النهار).(موارد الضمآن للهيثمي:٦/١٤٦)

إذن فالنار هنا هي القاطرة البخاريّة والنار في الحديث الأول هي الطائرة إذ إنَّه يقول (لتقصدنكم نار هي اليوم خامدة في واد يقال له: برهوت، تغشى الناس، فيها عذاب أليم، تأكل الأنفس والأموال تدور الدنيا كلها في ثمانية أيام، تطير طير الريح والسحاب، حرها (في الليل) أشد من حرها بالنهار، ولها ما بين السماء والأرض دوي كدوي الرعد القاصف، هي من رؤوس الخلائق أدنى من العرش).

فهذه النار ليست نار عادية بل إنَّها (تقصد) الناس!! وهذا يدل على كونها ناراً مُفكّرة بنوع من التفكير إمّا لوجود مخلوق ذكي مفكر فيها كما هو الطيار أو أنَّها بدون طيار ولكنَّها مُتحكم فيها من بعيد فـ(القصد) لا يكون للجماد، ثم إنَّه يقول إنَّ حرّها بالليل أشد من حرّها بالنهار وهذا يتناسب مع ما تفعله بعض الدول الآن عند الحروب من كونها تخصص الليل للقصف الجوي وتعطي النهار هدنة إنسانية لإخلاء الجرحى وتموين المدنيين ورجوعهم إلى الملاجئ وصوت الطائرة واضح في كونه كدويّ الرعد القاصف والطائرة قادرة على أنْ تدور العالم كلَّه في أوقات متعددة حسب طاقة الطائرة.

إذن فالنار في هذه الأحاديث لا يمكن أنْ تحمل على النار العادية بل على مخترعات تستعمل الطاقة النارية كالطائرات نفاثة والقاطرات وما شابه.



دلالة حديث مدينة العلم على أعلمية أمير المؤمنين علي عليه السلام

* السيد علي الميلاني

إنّ حديث «أنا مدينة العلم وعليٌ بابها» يدلّ على أعلميّة أمير المؤمنين عليه السلام، والأعلمية تستلزم الأفضليّة، ولا ريب في استحقاق الأفضل للإمامة وتعيّنه لها دون غيره.

أمّا دلالته على أعلميّته، فلأنّه باب مدينة العلم، إذ لو كان غيره أعلم منه للزم النقص في الباب، والنقص فيه يفضي إلى النقص في المدينة، وذلك ما لا يجترأ مسلم على تقوّله ولا مؤمن على تخيّل.

كذلك صريح الحديث أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله مدينة العلم، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام باب تلك المدينة، والعقل السليم يحكم بأنّه لا يكون باباً لمدينة العلم إلّا من أحاط بجميع علومها.

وهذا المعنى يستلزم أعلميّة أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق كافّة، فضلا عن سائر الأصحاب لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان أفضل وأكمل من جميع الأنبياء والمرسلين

والملائكة المقرّبين بالإجماع.

ونحن نورد في المقام كلمات بعض العلماء الأعلام في تقرير أعلميّة مدينة العلم عليه وآله السلام، لئلاّ يرتاب أحد في حصول كمالاته وعلومه لباب المدينة عليه السلام:

قال أبو حامد الغزالي في (الرسالة اللدنيّة): (والطريق الثاني: التعليم الرّباني، وذلك على وجهتين: الأُولى: إلقاء الوحي، وهو أنّ النفس إذا كملت بذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل، وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأماني الفانية، وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها، وتتمسّك بجود مبدعها وتعتمد على إفادته وفيض نوره، والله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالا كلّياً وينظر إليها نظراً إلهيّاً، ويتّخذ منها ألواحاً ومن النفس الكلّي قلماً، وينقش فيها جميع علومه، ويصير العقل الكلّي كالمعلّم والنفس القدسي كالمتعلّم، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينقش فيها جميع الصّور من غير تعلّم وتفكّر، ومصداق هذا قول الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه - وآله -: ﴿وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾.[النساء/١١٣]

فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق، لأنّ حصوله من الله تعالى بلا واسطة ووسيلة، وبيان هذه الكلمة يوجد في قصة آدم والملائكة، فإنّهم تعلّموا طول عمرهم وحصلوا بفنون الطرق الكثيرة العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات، وآدم لمّا جاء ما كان عالماً لأنّه ما تعلّم وما رأى معلّماً، فتفاخرت الملائكة عليه وتجبّروا وتكبّروا وقالوا: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونعلم حقائق الأشياء، فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه وأقبل بالاستغاثة على الربّ تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ فصغر حالهم عند آدم وقلّ علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم، فغرقوا في العجز فقالوا: لا علم لنا، فقال تعالى: {يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ} فأنبئهم آدم عن مكنونات الغيب ومستترات الأمر.

فتقرّر الأمر عند العقلاء: أنّ العلم الغيبي المتولّد عن الوحي أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة، وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل، حتى أغلق الله باب الوحي في عهد سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله، فكان رسول الله صلّى الله عليه - وآله - خاتم النبيين، وكان أعلم وأفصح العرب والعجم، وكان يقول: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»، وقال لقومه: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم من الله»، وإنّما كان علمه أشرف وأكمل وأقوى، لأنّه حصل عن التعليم الرباني وما اشتغل قط بالتعلّم والتعليم الإنساني، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى﴾.[النجم/٥]) (الرسالة اللدنية:٢٣١-٢٣٢)

وقال القاضي عياض: (ومن معجزاته الباهرة: ما جمعه الله تعالى له من المعارف والعلوم، وخصّه به من الاطّلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بأُمور شرائعه وقوانين دينه وسياسة عباده ومصالح أُمّته، وما كان في الأُمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل والجبابرة والقرون الماضية من لدن آدم إلى زمنه، وحفظ شرائعهم وكتبهم، ووعى سيرهم وسرد أنبائهم وأيّام الله فيهم، وصفات أعيانهم واختلاف آرائهم، والمعرفة بمددهم وأعمارهم، وحكم حكمائهم، ومحاجّة كلّ أُمّة من الكفرة، ومعارضة كلّ فرقة من الكتابيين بما في كتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومخبّآت علومها، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيره.

إلى الاحتواء على لغات العرب وغريب ألفاظ فرقها والإحاطة بضروب فصاحتها، والحفظ لأيّامها وأمثالها وحكمها ومعاني أشعارها، والتخصيص بجوامع كلمها، إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة والحكم البيّنة، لتقريب التفهيم للغامض والتبيين للمشكل. إلى تمهيد قواعد الشرع الذي لا تناقض فيه ولا تخاذل، مع اشتمال شريعته على محاسن الأخلاق ومحامد الآداب وكلّ شيء مستحسن مفضّل لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئاً إلّا من جهة الخذلان، بل كلٌّ جاحد له وكافر به من الجاهلية إذا سمع ما يدعو إليه صوّبه واستحسنه، دون طلب إقامة برهان عليه، ثمّ ما أحلّ لهم من الطّيبات وحرّم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المعاقبات والحدود عاجلاً والتخويف بالنار آجلاً.

إلى الاحتواء على ضروب العلوم وفنون المعارف كالطب والعبادة والفرائض والحساب والنسب وغير ذلك من العلم، ممّا اتّخذ أهل هذه المعارف كلامه عليه الصلاة والسلام فيها قدوة وأُصولاً في علمهم.

هـذا، مـع أنّـه صلّـى الله عليه - وآلـه - كـان لا يكتب، ولكنّه أوتي علم كلّ شيء.. ولا سبيل إلى جحد الملحد بشيء ممّا ذكرناه، ولا وجد الكفرة حيلة في دفع ما نصصناه، إلّا قولهم: أساطير الأوّلين، وإنّما يعلّمه بشر، فردّ الله قولهم بقوله: ﴿لِسانُ الَّذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ...﴾. [النحل/١٠٣]) (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى:٤١٢)

وقال الرازي في بيان الحجج على أفضليّة نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم من سائر الأنبياء عليهم السلام: (الحجة السادسة عشرة: قـال محمّد بـن عيسى الحكيم الترمذي في تقرير هذا المعنى: إنّ كلّ أمير فإنّ مزيّته على قدر رعيّته، فالأمير الذي تكون إمارته على قرية تكون إمارته ومزيّته بقدر تلك القرية، ومـن ملك الشـرق والغـرب احتاج إلى أمـوال وذخائر أكثر من أموال تلك القرية، فكذلك كلّ رسول بعث إلى قومه فأُعطي من كنوز التوحيد وجواهر المعرفة على قدر ما حمل من الرّسالة، فالمرسل إلـى قومه في طرف مخصوص من الأرض إنّما يعطى من هـذه الكنوز الروحانيّة بقدر ذلك الموضع، والمرسل إلى كلّ أهل الشرق والغرب ـ إنسهم وجنّهم ـ لا بُدَّ وأن يعطى من المعرفة بقدر ما يمكنه أنْ يقوم بسعيه بأُمور أهل الشرق والغرب.

وإذا كان كذلك، كان نسبة نبوة محمد صلّى الله عليه - وآله - إلى نبوة سائر الأنبياء كنسبة كلّ المشارق والمغارب إلى ملك بعض البلاد المخصوصة، ولو كان كذلك لا جرم أُعطي من كنوز الحكمة والعلم ما لم يعط أحد قبله، فلا جرم بلغ في العلم إلى الحدّ الذي لم يبلغه أحد من البشر قال تعالى في حقّه: ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى﴾ [النجم/١٠] وفي الفصاحة إلى أن قال: أوتيت جوامع الكلم، وصار كتابه مهيمناً على الكتب وصارت أُمّته خير الأمم). (تفسير الرازي:٢١٢/٦)

وقال ابن حجر المكي بشرح قول البوصيري:

لك ذات العلوم من عالم الغيـ

ـب ومنها لآدم الأسماء

قال: (واحتاج الناظم إلى هذا التفصيل مع العلم به ممّا قبله، لأنّ آدم ميّزه الله تعالى على الملائكة بالعلوم التي علّمها له، وكانت سبباً لأمرهم بالسجود والخضوع له، بعد استعلائهم عليه بذمّه ومدحهم أنفسهم بقولهم {أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ...}، فربما يتوهم أنّ هذه المرتبة الباهرة لم تحصل لنبيّنا صلّى الله عليه - وآله -، إذ قد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل، فردّ ذلك التوهّم ببيان أنَّ آدم لم يحصل له من العلوم إلَّا مجرّد العلم بأسمائها، وأنَّ الحاصل لنبيّنا صلّى الله عليه - وآله - هو العلم بحقائقها ومسمّياتها، ولا ريب أنَّ العلم بهذا أعلى وأجلّ من العلم بمجرّد أسمائها، لأنّها إنّما يؤتى بها لتبيين المسمّيات، فهي المقصودة بالذات وتلك بالوسيلة وشتان ما بينهما.

ونظير ذلك: أنَّ المقصود من خلق آدم إنّما هو خلق نبيّنا صلّى الله عليه - وآله - من صلبه، فهو المقصود بطريق الذّات وآدم بطريق الوسيلة، ومن ثمّ قال بعض المحققين: إنّما سجد الملائكة لأجل نور محمد صلّى الله عليه - وآله - الذي في جبينه...). (شموس الأنوار ومعادن الأسرار:٢٨١)

وقال الشيخ خالد الأزهري شارحاً قول البوصيري:

فاق النبيين في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ

ولم يدانوه في علم ولا كرم

وكلّهم من رسول الله ملتمس

غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

وواقفون لديه عند حدّهم



من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

قال: (ومعنى الأبيات الثلاثة: إنّه صلّى الله عليه - وآله - علا جميع النبيين في الخلقة والسجيّة، ولم يقاربوه في العلم ولا في الكرم، وفي قوله: يا أكرم الرسل، وفي قوله: ومن علومك علم اللوح والقلم. وكلّ النبيّين أخذ من علم رسول الله صلّى الله عليه - وآله - مقدار غرفة من البحر أو مصّة من المطر الغزير، وكلّهم واقفون عند غايتهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم، وخصّ الشكلة بالحكم لزيادة التفهيم بها على النقطة). (شرح البردة للأزهري:٦٣)

فظهر أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وآله أعلم من جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة، وكلّهم ملتمس منه غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم، وهذه المراتب بعض مراتب علم (مدينة العلم) صلّى الله عليه وآله، فأمير المؤمنين عليّ عليه السلام أعلم منهم جميعاً، لأنّه (باب هذه المدينة)، (مدينة العلم)، ولأنّه صلّى الله عليه وآله نصّ بقوله: «أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا، فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِهِ مِنْ بَابِهِ». (شواهد التنزيل لقواعد التفضيل للحسكاني: ٤٣٢/١)



من أسرار البسملة ومـعــانـيـهـا

* الشيخ محمد الدرازي

هذه الآية الكريمة هي شعار القرآن حيث تبتدأ سور القرآن كلها بهذه الآية - باستثناء سورة التوبة، حيث إنَّها بدأت بإعلان الحرب على الكفار فلا يناسب ذلك افتتاحها بالرحمة.

وحيث إنَّ القرآن الكريم يحتوي على ١١٤ سورة، وحيث إنّ البسملة تكررت في سورة النمل مرتين - مرة في مفتتحها ومرة في قوله تعالى حكايةً عن بلقيس ملكة سبأ حين أُلقي عليها كتاب كريم: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ لذا فالبسملة تكررت في القرآن الكريم ١١٤ مرة بعدد سوره تماماً.

ولعلَّ هذا التطابق يرمز إلى أنّ النظام التشريعي - الذي احتوى عليه القرآن الكريم - يبدأ من الله وتلفه الرحمة من أوله إلى آخره.

كما إنّ هذه الآية الكريمة هي شعار المسلم في كلّ عمل يقوم به حيث ورد في الحديث الشريف: «... كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَر... ». (بحار الأنوار:٣٠٥/٧٣،ح١)

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الباقر عليه السلام قَالَ: «سَرَقُوا أَكْرَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ». (تفسير العياشي:١٩/١،ح٤)

لماذا البدء بالبسملة؟

من الضروري أن يكون هنالك تطابق تام بين (الواقع الشعوري) و(الحقيقة الخارجية) لكي تكون مسيرة الفرد سليمة في الحياة، أما إذا حدث الانفصام بين الواقع الشعوري والحقيقة الخارجية فإنّ ذلك يؤدي إلى اختلال المسيرة وارتباك الأُمور، ويتضح ذلك إذا لاحظنا الحقيقتين التاليتين:

الحقيقة الأولى

إنّ المحرك للإنسان هو الشيء بـ(وجوده العلمي) لا بـ(وجوده العيني)، فلكلِّ شيء وجودان حقيقيان:

وجود (عيني) يتمثل في الوجود الخارجي للشيء كوجود الشمس الخارجية في كبد السماء.

وجود (علمي) يتمثل في الوجود الذهني للشيء كوجود الشمس في لوحة ذهنك حينما تتصورها وإنْ كنت في الظلام البهيم.

هذا مضافاً إلى وجودين آخرين اعتباريين هما (الوجود اللفظي) و(الوجود الكتبي).

والذي يحرك الإنسان هو الوجود العلمي للشيء لا الوجود العيني.

فإذا تصور الإنسان وجود خطر داهم يهدد حياته كحيوان مفترس يحاول أن يلتهمه فإنَّه سوف يفرُّ بنفسه وإنْ لم يكن هذا التصور يملك أيَّ رصيد من الواقع، وبالعكس، إذا كان هنالك خطر حقيقي يهدد حياته لكنَّه لم يشعر بذلك الخطر فإنَّه سوف يظل في مكانه دون أنْ يفكر في النجاة بنفسه.

فالمحرك للإنسان بل لكلِّ كائن واعٍ هو الشيء بوجوده العلمي لا بوجوده العيني.

الحقيقة الثانية

إنَّ للحقائق الخارجية آثاراً وضعية لا تناط بالعلم بها، بل تترتب عليها.

فالنظام الكوني نظام صارم، لا يتحمل أية معارضة، فكلُّ خروج على هذا النظام يستتبع عواقب وخيمة دون فرق بين أنْ يكون الخارج على النظام عالماً بعواقب خروجه أو جاهلاً بذلك.

إنَّ الجهل بالقانون أو بالآثار المترتبة قد يشفع لصاحبه في ارتفاع المؤاخذة القانونية، لكنَّه لن يكون شفيعاً له في ارتفاع الآثار التكوينية، فمن تحدى قانون الجاذبية وحاول أنْ يطير إلى السماء من سطح عمارة شاهقة فسوف تطرحه الجاذبية أرضاً وتتركه جثة مهشمة دون حراك وإنْ تصور أنَّه يستطيع أنْ يقلد الطيور في طيرانها، وهكذا في سائر الأمثلة.

وعلى ضوء هاتين الحقيقتين نستطيع أن نعرف أنَّ أيَّ انفصام بين الواقع الشعوري والحقيقة الخارجية سوف يجر الفرد إلى الجري العملي وفق تصوراته الذهنية المناقضة للواقع، وعندئذ، يطاله عقاب التمرد على النظام الكوني دون هوادة.

وانطلاقاً ممَّا تقدم نقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى في الواقع الخارجي مبدأ لكلِّ شيء، ومصدر لكلِّ شيء، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، فكلُّ (الذوات) تستمد كينونتها من كينونته، وكلُّ (الصفات) تستمد وجودها من وجوده، لأنَّ كلَّ (الذوات) وكلَّ (الصفات) أُمورٌ ممكنةُ الوجود أي لا تستمد الوجود من ذاتها.

فأنت لم تكن ثم كنت، وعلمك لم يكن ثم كان، ولا يستطيع أحد أنْ يدعي أنَّ وجوده مستمد من ذاته، إذ إنَّ (فاقد الشيء لا يعطيه)، فلا بُدَّ أنْ ينتهي وجودك الإمكاني إلى وجود واجب الذات وهو الله سبحانه وتعالى ولا بُدَّ أنْ ينتهي علمك الإمكاني إلى علم واجب بالذات وهو علم الله سبحانه وتعالى.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قبل كلِّ شيء في الواقع الخارجي فيجب أنْ يكون قبل كلِّ شيء في الواقع الشعوري لكي تتطابق الواقعيتان ولا يحدث أي انفصام بينهما، فقبل كلِّ شيء لا بُدَّ أنْ نرى الله سبحانه ونستشعر بوجوده وقدرته وهيمنته.

والالتفات إلى هذه الحقيقة ذو آثار جمة في فكر الإنسان وسلوكه، إذ سوف يتجه الإنسان بكلِّه إلى ربه، ويتوكل عليه، ويستمد كلَّ شيء منه، ولا يعود يتخذ أرباباً من دون الله سبحانه بتوهم أنَّها تنفعه أو تضره، إذ كلُّ شيء في هذا الوجود مرهون بمشيئته سبحانه وتعالى.

وقد روي أنَّه لما أمر الملك بحبس يوسف عليه السلام بالسجن ألهمه الله تعالى تأويل الرؤيا، فكان يعبر لأهل السجن، فلما سأله الفتيان الرؤيا وعبّر لهما، وقال للذي ظن أنَّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك، لم يفزع في تلك الحال إلى الله فأوحى الله إليه: من أراك الرؤيا التي رأيتها؟ قال يوسف: أنت يا رب. قال: فمن حببك إلى أبيك؟ قال يوسف: أنت يا رب. قال: فمن وجّه إليك السيارة التي رأيتها؟ قال يوسف: أنت يا رب. قال: فمن علمك الدعاء الذي دعوت به حتى جعلت لك من الجب فرجاً؟ قال يوسف: أنت يا رب. قال: فمن أنطق الصبي بعذرك؟ قال يوسف: أنت يا رب. قال: فمن ألهمك تأويل الرؤيا؟ قال يوسف: أنت يا رب. فقال سبحانه له: فكيف استعنت بغيري ولم تستعن بي، وأملت عبداً من عبيدي ليذكرك إلى مخلوق من خلقي وفي قبضتي ولم تفزع إليّ؟. (بحار الأنوار:١٢/٢٤٦)

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنَّها كانت

سبع سنين». (قصص الأنبياء للحسيني:١٩٣)

وقد روي أيضاً أنَّ جبرائيل عليه السلام أتى يوسف على نبيّنا وآله وعليه السلام، فضرب برجله حتى كشط له في الأرض السابعة، فقال له: يا يوسف انظر، ماذا ترى؟ فقال: أرى حجراً صغيراً، ففلق الحجر فقال: ماذا ترى؟ قال: دودة صغيرة، قال: فمن رازقها؟ قال: الله، قال: فإنَّ ربَّك يقول: لَمْ أنس هذه الدودة في ذلك الحجر في قعر الأرض السابعة، أظننت أنّي أنساك حتى تقول للفتى: اذكرني عند ربك؟ لتلبثن في السجن بمقالتك هذه بضع سنين.

فبكى يوسف عند ذلك، فتأذى به أهل السجن فصالحهم على أنْ يبكي يوماً ويسكت يوماً، فكان اليوم الذي يسكت فيه أسوء حالاً. (النور المبين للجزائري:٢١٣)

طبعاً هذا لا يعني عدم التوسل بالأسباب الطبيعية، بل يعني أنْ يعرف الإنسان أنَّ وراء كلّ الأسباب سبب الأسباب وهو الله سبحانه وتعالى.

فتكرار البسملة أمام كلّ سورة وقبل كلّ عمل إلفات إلى هذه الحقيقة، فـ(بسم الله) يعني أنّنا نبدأ بهذا الاسم المبارك، وتكرار ذلك قبل كلّ شيء يركز في الذهن هذه الحقيقة، حقيقة بدء كلّ شيء بالله في الواقع الخارجي، فينبغي الالتفات إلى هذه المبدئية في الواقع الشعوري، وإعلان هذا الالتفات في التلفظ بكلمة (بسم الله) أمام كلّ عمل في الحياة.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تَدَع بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وإنْ كانَ بَعدَهُ شِعر». (مكاتيب الأئمة عليهم السلام:١٤/٤)

لَقَدْ دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَبَيْنَ يَدَيْهِ كُرْسِيٌّ فَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، فَمَالَ بِهِ حَتَّى سَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَوْضَحَ عَنْ عَظْمِ رَأْسِهِ وَسَالَ الدَّمُ فَأَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِمَاءٍ، فَغَسَلَ عَنْهُ ذَلِكَ الدَّمَ.

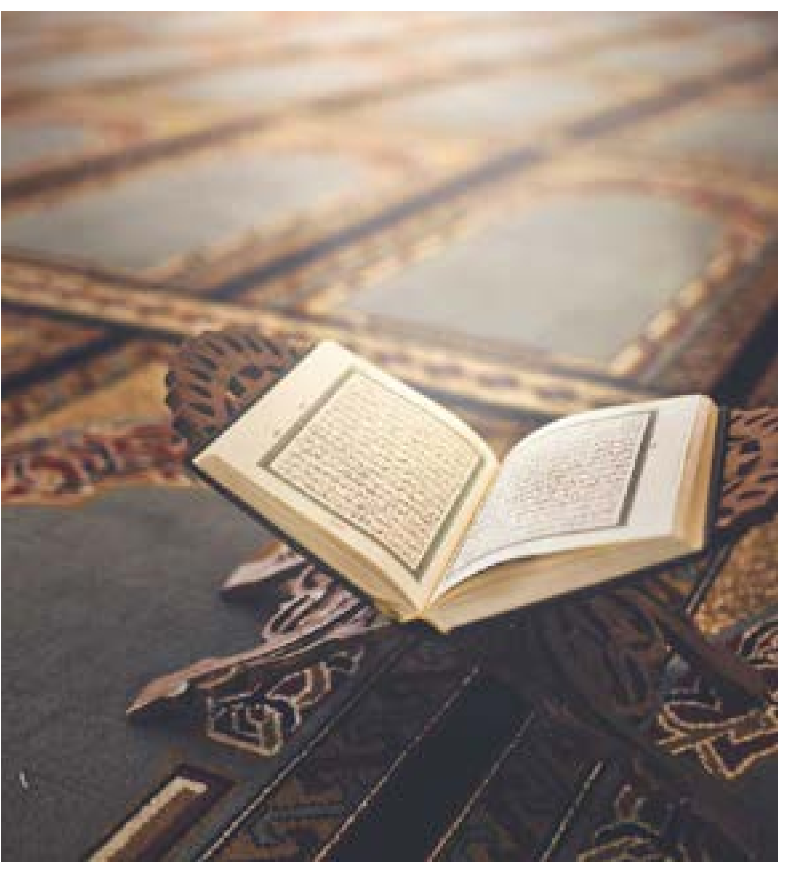
ثُمَّ قَالَ: «ادْنُ مِنِّي»، فَدَنَا مِنْهُ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مُوضِحَتِهِ وَقَدْ كَانَ يَجِدُ مِنْ أَلَمِهَا مَا لاَ صَبْرَ مَعَهُ وَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهَا وَتَفَلَ فِيهَا فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى انْدَمَلَ وَصَارَ كَأَنَّهُ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ قَطُّ، ثُمَّ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «يَا عَبْدَ اللهِ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ تَمْحِيصَ ذُنُوبِ شِيعَتِنَا فِي الدُّنْيَا بِمِحَنِهِمْ لِتَسْلَمَ لَهُمْ طَاعَاتُهُمْ وَيَسْتَحِقُّوا عَلَيْهَا ثَوَابَهَا».

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَإِنَّا لاَ نُجَازَى بِذُنُوبِنَا إِلَّا فِي الدُّنْيَا قَالَ: «نَعَمْ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله: الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ يُطَهِّرُ شِيعَتَنَا مِنْ ذُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَبْتَلِيهِمْ بِهِ مِنَ الْمِحَنِ، وَبِمَا يَغْفِرُهُ لَهُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: {وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ}[الشورى/٣٠]، حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْقِيَامَةَ، تَوَفَّرَتْ عَلَيْهِمْ طَاعَاتُهُمْ وَعِبَادَاتُهُمْ. وَإِنَّ أَعْدَاءَ مُحَمَّدٍ وَأَعْدَاءَنَا يُجَازِيهِمْ عَلَى طَاعَةٍ تَكُونُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ لاَ وَزْنَ لَهَا لِأَنَّهُ لاَ إِخْلاَصَ مَعَهَا حَتَّى إِذَا وَافَوُا الْقِيَامَةَ، حُمِلَتْ

عَلَيْهِمْ ذُنُوبُهُمْ وَبُغْضُهُمْ لِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ صلّى الله عليهم أجمعين وَخِيَارِ أَصْحَابِهِ، فَقُذِفُوا لِذَلِكَ فِي النَّارِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمَّداً صلّى الله عليه وآله يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ رَجُلانِ أَحَدُهُمَا مُطِيعٌ للهِ مُؤْمِنٌ وَالآخَرُ كَافِرٌ بِهِ مُجَاهِرٌ بِعَدَاوَةِ أَوْلِيَائِهِ وَمُوَالاةِ أَعْدَائِهِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُلْكٌ عَظِيمٌ فِي قُطْرٍ مِنَ الأَرْضِ، فَمَرِضَ الْكَافِرُ فَاشْتَهَى سَمَكَةً فِي غَيْرِ أَوَانِهَا، لأَنَّ ذَلِكَ الصِّنْفَ مِنَ السَّمَكِ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي اللُّجَجِ حَيْثُ لا يُقْدَرُ عَلَيْهِ، فَآيَسَتْهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ نَفْسِهِ وَقَالُوا لَهُ: اسْتَخْلِفْ عَلَى مُلْكِكَ مَنْ يَقُومُ بِهِ، فَلَسْتَ بِأَخْلَدَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، فَإِنَّ شِفَاءَكَ فِي هَذِهِ السَّمَكَةِ الَّتِي اشْتَهَيْتَهَا، وَلاَ سَبِيلَ إِلَيْهَا. فَبَعَثَ اللهُ مَلَكاً وَأَمَرَهُ أَنْ يُزْعِجَ الْبَحْرَ بِتِلْكَ السَّمَكَةِ إِلَى حَيْثُ يسهلُ أَخْذُهَا فَأُخِذَتْ لَهُ تِلْكَ السَّمَكَةُ فَأَكَلَهَا، فَبَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ، وَبَقِيَ فِي مُلْكِهِ سِنِينَ بَعْدَهَا. ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْمُؤْمِنَ مَرِضَ فِي وَقْتٍ كَانَ جِنْسُ ذَلِكَ السَّمَكِ بِعَيْنِهِ لاَ يُفَارِقُ الشُّطُوطَ الَّتِي يُسَهَّلُ أَخْذُهُ مِنْهَا، مِثْلَ عِلَّةِ الْكَافِرِ، وَاشْتَهَى تِلْكَ السَّمَكَةَ، وَوَصَفَهَا لَهُ الأَطِبَّاءُ. فَقَالُوا: طِبْ نَفْساً، فَهَذَا أَوَانُهَا تُؤْخَذُ لَكَ فَتَأْكُلُ مِنْهَا، وَتَبْرَأُ. فَبَعَثَ اللهُ ذَلِكَ الْمَلَكَ وَأَمَرَهُ أَنْ يُزْعِجَ جِنْسَ تِلْكَ السَّمَكَةِ كُلَّهُ مِنَ الشُّطُوطِ إِلَى اللُّجَجِ لِئَلاَّ يُقْدَرَ عَلَيْهِ فَيُؤْخَذَ حَتَّى مَاتَ الْمُؤْمِنُ مِنْ شَهْوَتِهِ، لِعَدَمِ دَوَائِهِ. فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ مَلائِكَةُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ ذَلِكَ الْبَلَدِ فِي الأَرْضِ حَتَّى كَادُوا يُفْتَنُونَ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَهَّلَ عَلَى الْكَافِرِ مَا لاَ سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَعَسَّرَ عَلَى الْمُؤْمِنِ مَا كَانَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ سَهْلاً. فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مَلاَئِكَةِ السَّمَاءِ وَإِلَى نَبِيِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي الأَرْضِ: أَنِّي أَنَا اللهُ الْكَرِيمُ الْمُتَفَضِّلُ الْقَادِرُ، لاَ يَضُرُّنِي مَا أُعْطِي، وَلاَ يَنْفَعُنِي مَا أَمْنَعُ، وَلاَ أَظْلِمُ أَحَداً مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، فَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّمَا سَهَّلْتُ لَهُ أَخْذَ السَّمَكَةِ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا، لِيَكُونَ جَزَاءً عَلَى حَسَنَةٍ كَانَ عَمِلَهَا، إِذْ كَانَ حَقّاً عَلَيَّ أَنْ لاَ أُبْطِلَ لأَحَدٍ حَسَنَةً حَتَّى يَرِدَ الْقِيَامَةَ وَلاَ حَسَنَةَ فِي صَحِيفَتِهِ، وَيَدْخُلَ النَّارَ بِكُفْرِهِ. وَمَنَعْتُ الْعَابِدَ تِلْكَ السَّمَكَةَ بِعَيْنِهَا، لِخَطِيئَةٍ كَانَتْ مِنْهُ أَرَدْتُ تَمْحِيصَهَا عَنْهُ بِمَنْعِ تِلْكَ الشَّهْوَةِ، وَإِعْدَامِ ذَلِكَ الدَّوَاءِ، لِيَأْتِيَنِّ وَلاَ ذَنْبَ عَلَيْهِ، فَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ».

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَفَدْتَنِي وَعَلَّمْتَنِي، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعَرِّفَنِي ذَنْبِي الَّذِي امْتُحِنْتُ بِهِ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ، حَتَّى لاَ أَعُودَ إِلَى مِثْلِهِ.

قَالَ: «تَرْكُكَ حِينَ جَلَسْتَ أَنْ تَقُولَ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ) فَجَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لِسَهْوِكَ عَمَّا نُدِبْتَ إِلَيْهِ تَمْحِيصاً بِمَا أَصَابَكَ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه وآله حَدَّثَنِي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ:



كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُذْكَرْ (بِسْمِ اللهِ) فِيهِ فَهُوَ أَبْتَرُ».

فَقُلْتُ: بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لاَ أَتْرُكُهَا بَعْدَهَا.

قَالَ: «إِذاً تُحْصَنُ بِذَلِكَ وَتَسْعَدُ».

ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَفْسِيرُ (بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ) قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ يَعْمَلَ عَمَلاً يَقُولُ: بِسْمِ اللهِ أَيْ: بِهَذَا الاسْمِ أَعْمَلُ هَذَا الْعَمَلَ فَكُلُّ أَمْرٍ يَعْمَلُهُ يَبْدَأُ فِيهِ بِـ(بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ) فَإِنَّهُ يُبَارَكُ لَهُ فِيهِ...».

(تفسير الإمام العسكري عليه السلام:٢٢-٢٥)

وَقَالَ الإمام الصَّادِقُ عليه السلام: «وَلَرُبَّمَا تُرِكَ فِي افْتِتَاحِ أَمْرٍ بَعْضِ شِيعَتِنَا فَيَمْتَحِنُهُ اللهُ بِمَكْرُوهٍ، لِيُنَبِّهَهُ عَلَى شُكْرِ اللهِ تَعَالَى وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَيَمْحُوَ عَنْهُ وَصْمَةَ تَقْصِيرِهِ عِنْدَ تَرْكِهِ قَوْلَ: بِسْمِ اللّهِ [الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ]». (تفسير الإمام العسكري عليه السلام:٢٢)

الابتلاء والامتحان في أخر الزمان

* ماهر آل شبر

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿... مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.[آل عمران/١٧٩]

إنّ تمحيص المؤمنين وابتلاءهم وامتحانهم في الدنيا من أجل الوصول إلى الكمال ورفع الدرجات في الآخرة.

إنّ دولة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو المشروع الإلهي الكبير في الأرض، ولكي يتم تطبيق دولة العدل هذه بالشكل المطلوب والصحيح لا بُدَّ أنْ يتم اختيار الأشخاص الذين يعتمد عليهم في بناء هذه الدولة وقيامها بعناية فائقة، فلا بُدَّ إذاً أنْ ينجح هؤلاء الأشخاص في عدة اختبارات وامتحانات صعبة ومن هذه الامتحانات طول مدة الغيبة والتعرض لأصناف الظلم والابتلاءات، ومثال ذلك ما كان من أصحاب النبيّ نوح على نبيّنا وآله وعليه السلام حيث لم يركب معه في السفينة إلّا القليل من المؤمنين بعد أنْ تساقط الكثير ممَّن كانوا معه عندما طالت المدة ويئسوا من الفرج.

فعن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن الصادق عليه السلام في قصة نبي الله نوح على نبيّنا وآله وعليه السلام بعد أنْ أمضى في دعوة قومه ستمائة سنة قال: «...وعاد عليه السلام إلى قومه يدعوهم فلا يزيدهم دعاؤه إلّا فراراً حتى انقضت ثلاثمائة سنة تتمة تسعمائة سنة، فصارت إليه الشيعة وشكوا ما ينالهم من العامة والطواغيت وسألوه الدعاء بالفرج، فأجابهم إلى ذلك وصلى ودعا، فهبط جبريل عليه السلام فقال له: إنَّ الله تبارك وتعالى أجاب دعوتك فقل للشيعة: يأكلوا التمر ويغرسوا النوى ويراعوه حتى يثمر، فإذا أثمر

فرجت عنهم، فحمد الله وأثنى عليه وعرفهم ذلك فاستبشروا به، فأكلوا التمر وغرسوا النوى وراعوه حتى أثمر، ثم صاروا إلى نوح على نبيّنا وآله وعليه السلام بالتمر وسألوه أنْ ينجز لهم الوعد، فسأل الله عزَّ وجلَّ في ذلك فأوحى الله إليه قل لهم: كلوا هذا التمر واغرسوا النوى فإذا أثمر فرجت عنكم، فلما ظنوا أنَّ الخلف قد وقع عليهم، ارتد منهم الثلث وثبت الثلثان، فأكلوا التمر وغرسوا النوى حتى إذا أثمر أتوا به نوحاً على نبيّنا وآله وعليه السلام فأخبروه وسألوه أن ينجز لهم الوعد، فسأل الله عزَّ وجلَّ في ذلك، فأوحى إليه قل لهم: كلوا هذا التمر، واغرسوا النوى، فارتد الثلث الآخر وبقي الثلث فأكلوا التمر وغرسوا النوى، فلما أثمر أتوا به نوحاً على نبيّنا وآله وعليه السلام ثم قالوا له: لم يبق منا إلّا القليل ونحن نتخوف على أنفسنا بتأخير الفرج أنْ نهلك، فصلى نوح على نبيّنا وآله وعليه السلام ثم قال: يا رب لم يبق من أصحابي إلّا هذه العصابة وإنّي أخاف عليهم الهلاك إن تأخّر عنهم الفرج، فأوحى الله عزّ وجل إليه قد أجبت دعاءك فاصنع الفلك، وكان بين إجابة الدعاء وبين الطوفان خمسون سنة». (غيبة الطوسي:٤٥٩).

لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام الكثير من الأحاديث والروايات التي تؤكد على مبدأ الابتلاء والاختبار في زمان الغيبة وحصول التمحيص فيها وأنّ من جملة الامتحانات التي يمتحن الله بها العباد هو فقدهم إمامهم المعصوم وانقطاعهم عنه.

عن ابن عباس قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: «إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ إِمَامُ أُمَّتِي وَخَلِيفَتِي عَلَيْهَا بَعْدِي وَمِنْ وُلْدِهِ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ الَّذِي يَمْلَأُ اللهُ بِهِ الأَرْضَ عَدْلاً وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ بَشِيراً إِنَّ الثَّابِتِينَ عَلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ فِي زَمَانِ غَيْبَتِهِ لَأَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ»، فَقَامَ إِلَيْهِ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَلِلْقَائِمِ مِنْ وُلْدِكَ غَيْبَةٌ؟ قَالَ: «إِي وَرَبِّي ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران/١٤١]، يَا جَابِرُ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَسِرٌّ مِنْ سِرِّ اللهِ عِلَّتُهُ مَطْوِيَّةٌ عَنْ عِبَادِ اللهِ فَإِيَّاكَ وَالشَّكَّ فَإِنَّ الشَّكَّ فِي اللهِ كُفْرٌ». (كشف الغمة في معرفة الأئمة:٥٢١/٢)

وجاء في كتاب الغيبة للنعماني: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي أَحْمَدَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هِلَالٍ قَالَ: قُلْتُ لأَبِي الْحَسَنِ الكاظم عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ مَاتَ أَبِي عَلَى هَذَا الأَمْرِ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ السِّنِينَ مَا قَدْ تَرَى أَمُوتُ وَلاَ تُخْبِرُنِي بِشَيْءٍ، فَقَالَ: «يَا أَبَا إِسْحَاقَ أَنْتَ تَعْجَلُ»، فَقُلْتُ: إِي وَاللهِ أَعْجَلُ وَمَا لِي لاَ أَعْجَلُ وَقَدْ كَبِرَ سِنِّي وَبَلَغْتُ أَنَا مِنَ السِّنِّ مَا قَدْ تَرَى، فَقَالَ: «أَمَا وَاللهِ يَا أَبَا إِسْحَاقَ مَا يَكُونُ ذَلِكَ حَتَّى تُمَيَّزُوا وَتُمَحَّصُوا وَحَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا الأَقَلُّ»، ثُمَّ صَعَّرَ كَفَّه. (الغيبة للنعماني:٢٠٨)

وَعن الْفَضْل بْن شَاذَانَ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي نَصْرٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ: «لاَ يَكُونُ مَا تَمُدُّونَ إِلَيْهِ أَعْنَاقَكُمْ حَتَّى تُمَيَّزُوا وَتُمَحَّصُوا فَلاَ يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت/١-٢]...». (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد:٣٧٥/٢)

عن مُحَمَّد بْن يَحْيَى وَالْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّيْرَفِيِّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّيْقَلِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مَنْصُورٍ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «يَا مَنْصُورُ إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لاَ يَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْدَ إِيَاسٍ وَلاَ وَاللهِ حَتَّى تُمَيَّزُوا وَلاَ وَاللهِ حَتَّى تُمَحَّصُوا وَلاَ وَاللهِ حَتَّى يَشْقَى مَنْ يَشْقَى وَيَسْعَدَ مَنْ يَسْعَدُ». (الكافي الشريف:٣٧٠/١)

ولسوف يكون الشعب العراقي أكثر شعوب العالم تعرضاً لصنوف الابتلاء والتمحيص باعتبار أنّ الكوفة هي عاصمة دولة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف كما دّلت على ذلك العديد من الروايات فلا بُدَّ أنْ يمحصوا جيداً ليكونوا بذلك أهلاً لمجاورة الإمام المهدي عليه السلام لهم ولكي يمكنه الاعتماد عليهم في إقامة دولته العالمية، فهم سيكونون كما

تحدثت الروايات أكثر الناس تعرضاً لسطوة الشيصباني والسفياني وغيرهم من الظلمة، هذا بالإضافة إلى العديد من الحروب المدمرة.

ونقل الشيخ المفيد في كتابه من ضمن علامات قيام الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف والحوادث التي تسبق ظهوره العديد من المصائب التي يبتلي بها أهل العراق فيقول: (وَبَثْقٌ فِي الْفُرَاتِ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَاءُ أَزِقَّةَ الْكُوفَة... وَخَوْفٌ يَشْمَلُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَمَوْتٌ ذَرِيعٌ فِيهِ وَنَقْصٌ مِنَ الأَنْفُسِ وَالأَمْوَالِ وَالثَّمَرَات...). (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد:٢/٣٦٩)

عن الْحَسَن بْن يَزِيد عَنْ مُنْذِرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «يُزْجَرُ النَّاسُ قَبْلَ قِيَامِ الْقَائِمِ عَنْ مَعَاصِيهِمْ بِنَارٍ تَظْهَرُ فِي السَّمَاءِ وَحُمْرَةٌ تُجَلِّلُ السَّمَاءَ وَخَسْفٌ بِبَغْدَادَ وَخَسْفٌ بِبَلَدِ الْبَصْرَةِ وَدِمَاءٌ تُسْفَكُ بِهَا وَخَرَابُ دُورِهَا وَفَنَاءٌ يَقَعُ فِي أَهْلِهَا وَشُمُولُ أَهْلِ الْعِرَاقِ خَوْفٌ لاَ يَكُونُ مَعَهُ قَرَار». (إعلام الورى بأعلام الهدى:٤٥٩)

فهناك أنواع الابتلاءات والامتحانات في زمان الغيبة الكبرى بأشكال مختلفة منها ما يلي:

١. مواجهة الشهوات والنوازع الشيطانية فتأثيرها أكبر في هذه الغيبة بسبب زيادة إغواء إبليس والإغراءات الشيطانية والفساد الخلقي والانحراف السائد لغياب القيادة الحكيمة وانقطاع الاتصال بها.

٢. سيادة الظلم والجور في الأرض وتعرّض الإنسان للضغوطات والاضطهاد والمصاعب بسبب انحسار الإسلام بنظامه العادل عن المجتمعات البشرية.

٣. مواجهة الفرد المؤمن لضروب التشكيك في وجود الإمام كلما طال الزمان وبالتالي التشكيك في العقيدة ومن ثم سيطرة الحياة المادية على المجتمع.

فبعد كلّ هذه الابتلاءات والمصاعب والمحن يتكامل المؤمنون ويخرج الصفوة الذين يمكن الاعتماد عليهم في قيام الدولة الإسلامية وبقائها بالشكل المطلوب.

ولقد أكّدت الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام على وجوب الثبات في هذه المحن والصبر على البلاء وتحمل المصاعب مهما عظمت الرزايا وكثرت ضروب المشككين لطول مدة الغيبة.

عن مُحَمَّد بْن يَحْيَى وَالْحَسَن بْن مُحَمَّدٍ جَمِيعاً، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكُوفِيِّ، عَنِ



الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّيْرَفِيِّ، عَنْ صَالِحِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ يَمَانٍ التَّمَّارِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام جُلُوساً فَقَالَ لَنَا: «إِنَّ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ غَيْبَةً الْمُتَمَسِّكُ فِيهَا بِدِينِهِ كَالْخَارِطِ لِلْقَتَادِ» ثُمَّ قَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ، «فَأَيُّكُمْ يُمْسِكُ شَوْكَ الْقَتَادِ بِيَدِهِ»، ثُمَّ أَطْرَقَ مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ:« إِنَّ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ غَيْبَةً فَلْيَتَّقِ اللهَ عَبْدٌ وَلْيَتَمَسَّكْ بِدِينِهِ». (الكافي الشريف:١/٣٣٥/ح١)

ثم قال هكذا بيده: أي أشار بيده، والخارط من يضرب بيده على أعلى الغصن ثمّ يمدّها إلى الأسفل ليسقط ورقة والقتاد شجر له شوك.

ورد في إكمال الدين عن ابن عصام، عَنِ الْكُلَيْنِيِّ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ الْعَلَاءِ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنِ ابْنِ حُمَيْدٍ عَنِ ابْنِ قَيْسٍ عَنِ الثُّمَالِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليهما السلام أَنَّهُ قَالَ: «فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ {وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ} [الأنفال/٧٥]، وَفِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ [الزخرف/٢٨]، وَالإِمَامَةُ فِي عَقِبِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليهم السلام إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ لِلْقَائِمِ مِنَّا غَيْبَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا أَطْوَلُ مِنَ الْأُخْرَى أَمَّا الْأُولَى فَسِتَّةُ أَيَّامٍ وَسِتَّةُ أَشْهُرٍ وَسِتُّ سِنِينَ وَأَمَّا الْأُخْرَى فَيَطُولُ أَمَدُهَا حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ أَكْثَرُ مَنْ يَقُولُ بِهِ فَلَا يَثْبُتُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ قَوِيَ يَقِينُهُ وَصَحَّتْ مَعْرِفَتُهُ وَلَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِهِ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْنَا وَ سَلَّمَ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ». (إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات:٥/٨١)

ورد في كتاب إكمال الدين عن ابن بابويه أنّه روى: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الْعَطَّارُ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عِيسَى الْكِلَابِيِّ، عَنْ خَالِدِ بْنِ نَجِيحٍ، عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَعْيَنَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّ لِلْقَائِمِ غَيْبَةً قَبْلَ أَنْ يَقُومَ»، قُلْتُ لَهُ: وَلِمَ؟ قَالَ: «يَخَافُ» وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى بَطْنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا زُرَارَةُ وَهُوَ الْمُنْتَظَرُ وَهُوَ الَّذِي يَشُكُّ النَّاسُ فِي وِلَادَتِهِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هُوَ حَمْلٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هُوَ غَائِبٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا وُلِدَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ وُلِدَ قَبْلَ وَفَاةِ أَبِيهِ بِسَنَتَيْنِ غَيْرَ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَمْتَحِنَ الشِّيعَةَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ...». (إكمال الدين وتمام النعمة:٢/٣٤٢)



صدر عن شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
العتبة الحسينية المقدسة
الكتاب الموسوم بـ(كميل بن زياد النخعي)

